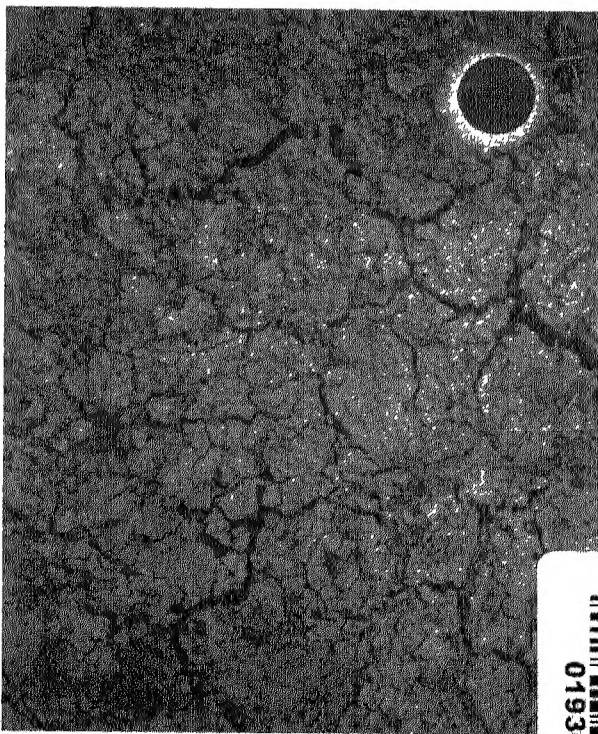


غی تویلیه - جان تولار

مجله ادبی و فرهنگی
شماره ۱۰۰ - زمستان ۱۳۸۵



ترجمه: د. عادل العوا

0193608



Bibliotheca Alexandrina

صناعة المؤرخ

* صناعة المؤرخ

* غي تويليه و جان تولار

* الطبعة الأولى 1999

* جميع حقوق الترجمة محفوظة للناسر

* دار الكلمة للنشر والتوزيع والطباعة

سورية - دمشق - ص. ب : 2229

هاتف ، فاكس : 2126326

Alkalemah for publishing and Distribution

Baramikah - Damascus - Syria

P. O. Box : 2229. Telephone/Fax: 2126326

* دار الحصاد للنشر والتوزيع

سورية - دمشق - ص. ب : 4490

هاتف ، فاكس : 2126326

غني تويليه و جان تولار

صناعة المؤرخ

ترجمة وتقديم: د. عادل العوا

المقدمة

للتاريخ، بوجه عام، تاريخ، وهو تاريخ وجود وتاريخ فكر. فمن حيث هو وجود يكون التاريخ جماع ما يعيشه الأفراد والجماعات في واقع حياتهم، وملازمات نشاطهم، على مرّ الأيام، وتعاقب العصور والحقب. ومن حيث هو فكر فإن التاريخ نشاط ذهني يتوخى المعرفة بما حدث، ثم تحليل هذه المعرفة واستنباط ما يحسن استنباطه من قواعد ونظم وقوانين تنير إمكانات السلوك البشري الحاضر والقادم، أو أنها، كما يرى المتشائمون، لاتنير، لأن التاريخ لا يكرّر نفسه، والزمان لا يشبه الزمان.

والتاريخ، وجوداً وفكراً، محل إهتمام الوعي الثقافي في شتى الحضارات، ومنها، على سبيل المثال الوجيز، الحضارة العربية الاسلامية، حيث تطالعنا العناية بالتاريخ بضروب النمو وصنوف الأنواع. بدأ التاريخ بسرد الأنباء عن الماضي، وكان المؤرخون بوجه خاص من الرواة والقصاص والوعاظ. ثم تكامل التبع فصار بحثاً علمياً انجلت عنه فروع تخصص من طراز فروع الطبقات وفتوح البلدان والتراجم والحواليات وتواريخ السلالات الحاكمة والدول المتعاقبة أو المتزامنة.. وتحرر غير واحد من المؤرخين من الانحياز السياسي والمذهبي وانطلق من مشاهدة الحوادث تارة، ومن نقد الوثائق والأثار نقداً دقيقاً تارات لاستخلاص (الحكمة) كما يقول (مسكويه) من (تجارب الامم) أو استشفاف (العبر) كما نشد (ابن خلدون) في كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر».

التاريخ في نظر (مسكويه) تجربة غزيرة ينبغي أن يفيد منها الناس كافة ولا

سيما الخاصة المسؤولون عن الشؤون السياسية. وهو عند (ابن خلدون) فن عزيز المذهب، جَمَّ الفوائد، شريف الغاية. تتداوله الأمم والأجيال، وتُشدُّ اليه الركائب والرجال، وتسمو إلى معرفته السوق والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقوال، وتتساوى في فهمه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لايزيد على إخبار عن الأيام والدول، والسابق من القرون الأول.. ومن باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق: فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يُعَدَّ في علومها خليقاً.

ويقول آخر، للتاريخ ظاهر وباطن. ظاهره خبر، وباطنه نظر.

وهو حكمة يبدعها حكيم، وفن، ظاهره وباطنه، يتقنه فنان. والحكيم أو الفنان هو المؤرخ. ولا مشاحة في نبوغ هذين الناظرين العربيين إلى التاريخ، ونظر أمثالهما الكثر في ثقافتنا صائب حصيف سديد. ولكن الثابت في الأمر، أن العناية بالتاريخ ما برحت تنمو في ثقافات أخرى، في مختلف الحضارات. كما ان من الثابت أيضاً أن نموها لم يقتصر على الجوانب النظرية والمذهبية، الفلسفية والايديولوجية، التي حفل بابداعها الفكر الانساني.. بل لإننا واجدون تعمقاً لنتاج التاريخ طامحاً لبلوغ الغاية من الدقة والجلاء.

وقد جاء مؤلفا هذا الكتاب بدراسة شيقة جادة تخطت، أو أكملت، ماسبقها من عناية بشؤون التاريخ. وقد شاء المؤلفان تعمق جدل ظاهر التاريخ وباطنه، ووجدوا ان بين الظاهر والباطن، بل من الظاهر إلى الباطن، ثمة عالم وسيع حي جياش أصيل فيه البراعة مطلب سائد دائم، والنجاح غرض صريح أو مكتوم، فسعي إلى اختراق حجبهِ، وهتك اسراره، فكان من ذلك المسعى دراستهما الحاضرة عن صناعة المؤرخ أو مهنته.

تساءلا: كيف يغدو المرء مؤرخاً؟ ووجدوا ان الطريق (الملكي) إلى ذلك هو طريق (الجامعة) بمختلف إمكاناتها واختصاصاتها ومؤسساتها ودرجاتها. وتتبعاً تطور المهنة بتطور تصور التاريخ وشتى نظرات المدح أو القدرح التي واكبت تقويمها.

ولما سألا: ما المؤرخ؟ أجابا عن ذلك بأنه خبير الزمن الماضي وأنه يتميز بخصائص الفضول والقدرة المعمارية وبموهبة التخمين وباهتمامه بإشكالية الموت على نحو اهتمام الطبيب بحدس الحياة.

إن عمل المؤرخ المهني عمل شاق تمثل صعباه أكثر ماتمثل في ضغط الجماعة، وفي جهود الاحتراف والتدريب ومكافحة المؤرخ أوهامه المهنية عن ذاته وقدراته أو عزلته. وذلك النضال لا يتحقق دون حوافز تتحدى المخاطر. أما الحوافز فأهمها حافز الارادة، ثم الطماح، ثم اللذة بفويرقات خواصها المميزة، ثم الحلم، والحلم يلزم كتابة التاريخ، ويتيح اختيار موضوعاتها، وتمني الإبداع المتفوق مشيداً الاحلام - البرامج، ومبيداً أحلام - الاخفاق، متضمناً حافزاً كاتباً هو حافز الحذر ولاسيما من خداع الذات، حاثاً على حافز التواضع اللازب.

صحيح أن المؤرخ لا يتجشم المخاطر إلا قليلاً، ولا يكاد يحب المغامرة. ولكن المؤلفين يبرزان خطر الاختبارات السيئة في صناعة المؤرخ، ويتهمان إلى خطر التاريخ الايديولوجي من جهة، وخطر التاريخ البلاغي من جهة أخرى، فضلاً عن خطر تثبيط الشيخوخة، إذ يشيخ المؤرخ طبعاً، ولكن على نحو سيء في الغالب.

وقد بسط المؤلفان القول في استعمال المؤرخ نشاطه استعمالاً جيداً، محذرين من خيبات الأمل، وشارحين الواجبات المهنية اللازمة، موضعين معنى، بل معاني المهم في التاريخ، والمهم هو مايوسوس في صدر المؤرخ حاثاً إياه على البحث والتنقيب والتعميق وإماطة اللثام عن الخفي من الأمر، والمموه، والمكتوم، كاشفين الغطاء عن تأثير العوامل الشخصية كالمزاج والسجية في عمل المؤرخ نفسه.

ولما كان المؤرخ يكتب ليقرأ، فقد غني المؤلفان بدراسة خصائص جمهور المؤرخ وأبانا حرص قراء الكتب التاريخية على أن يمتحوا منها عبراً لأن معرفة الماضي تتيح فهم الحاضر فهماً أفضل، مثال ذلك، رقد تاريخ الحصار القارّي القراء بما يساعد على فهم حصار العراق عام 1990 فهماً أفضل.

الوضوح، والامانة، والموضوعية، والتجديد والتشويق هي عناوين واجبات المؤرخ، خدام الحقيقة، مع احترامه القارئ المحتمل. وهذه الصلة تكمل صورتها يبحث ما يسميه المؤلفان التسويق وتوقعات المهنة التي نمت جوانبها حتى جاز تميز مهن تاريخية عدة، بعضها قديم كما في التعليم العالي وفي ميادين البحث العلمي وحفظ التراث، وبعضها الآخر جديد كما في الصحافة والنشر ودنيا مهن السمعي - البصري، وما تنطوي عليه في عوالم الاتصالات ووسائل الإعلام الجماهيري النامية وثباً في هذه الأيام.

أما مستقبل مهنة المؤرخ، وما يتوقع من تطورها القريب، فقد أفرد له المؤلفان فصلاً أخيراً يبين شتى الاحتمالات المتصلة بالوسائل المادية والوسائل التقنية وشرحاً نتائج هذا التطور بما يوجب على هذه المهنة التحرك المتجدد، وأن يغدو التاريخ ذاته تاريخاً تقنياً..

وصفوة القول، لم يبق التاريخ سرداً، ولا حكمة أو عبرة، ولم يبق المؤرخ باحثاً عن الحقيقة للحقيقة، بل صارت صناعة التاريخ فناً كما قال (ابن خلدون)، ولكن فن التاريخ هو في أيامنا فن المؤرخ. ومهنته مهنة موهبة وحال، ومزاج. إنها مهنة شاقة ذات حوافز ومخاطر ولها استعمال جيد لا يطمح إلى اليقين، بل يكفيه شبه الحقيقة، واللايقين. وهي مهنة جرفية، كمهنة الساعاتي أو النجار، ولا مندوجة من أن يعيش المؤرخ المعاصر في لاطمأنينة متزايدة كما يقول المؤلفان، وأن يضطر لأجل بقاءه إلى تغيير أغراضه، وطرائقه، ومنظومات استدلاله، وفيما عدا ذلك، ان يحيا على عكس التيار.

* * *

هكذا تمضي مهنة المؤرخ، ويمضي تاريخ التاريخ، وكلاهما يتسم بالتغير المطرد تبع الأزمنة والثقافات. وهذا كله بعض مايلفت الانتباه اليه مؤلفا هذا الكتاب بأصالة وكفاءة ونجاح.

عادل العوا

تصدير

مامهنة المؤرخ؟ (كلمة مهنة Métier مشتقة بالادغام من كلمة (Ministerium)، و (Menestier). إنه سؤال عسير: اذ يحق لكل مؤرخ أن يدللي بإجابته. وإن غرضنا المحدود:

1 - إن هذه الصفحات التي هي التكملة الضرورية لكتابيننا: (طريقة التاريخ) (1986) و(المدراس التاريخية) (1990) لانتناول سوى التاريخ الحديث والمعاصر: ذلك أن طرق الاستدلال، وظيفه مؤرخ العصر القديم، ومؤرخ العصر الوسيط، تختلفان بطبيعتهما غاية الاختلاف (ينبغي على المؤرخ منذ القرن السابع عشر، ولاسيما القرن التاسع عشر، أن يعالج جملة وثائقه لا يكاد يحيط بها دون عناء كبير).

2 - إننا نسعى لتقديم بضعة أفكار تفيد الطالب في التاريخ، والمؤرخ الناشئ، والمؤرخ غير المحترف، ممن يتساءلون عما يشكل، أو لا يشكل، كنه المهنة، والذين يترتب عليهم، في الغالب، الاضطلاع باختيارات صعبة، والذين يرتابون في معنى ما يصنعون: فهذه الصفحات تستهدف رفد التفكير في بعض النقاط، والتحذير، عند الاقتضاء، من بعض الغلو.

وقد تمنينا اجتناب كل تمجيد مثالي، وكل رياء، في تقديمنا دون موازنة صناعة المؤرخ، بأفراحها ومكارهاها.

3 - إن صناعة المؤرخ، شأنها شأن كل صناعة، تنطوي على طائفة من

قواعد اللعبة التي يرجع قسم كبير منها إلى العرف: ومن الأفضل البدء بمعرفتها قبل الانخراط في درب طويل (مبدئياً لثلاثين أو أربعين عاماً). كانت (ميشيل برو) Michelle Perrot تقول^(*):

(ليس التاريخ بالأمر السهل)، «الوضع غير مريح لبحث مشترك، لا يقيني، مبثّر بين لغات عدة، تتجاذبه طرائق شتى، مسحوق تتهاوى عليه الاسئلة، وهو ملتزم بتتبع جهنمي لواقع يخامره، ويأبى منه». وقد حسينا أن علينا ألاّ نموّه (حتى ولو لجأنا إلى التعريض) صعاب المهنة وعبودياتها وأفراحها الحلوة - والمرة. 4 - إن تصورات المهنة متفاوتة جداً في أغلب الأحيان: بعضها يتخذ التاريخ للتاريخ (مثلما يوجد الفن للفن)، وبعضها لا يرح يؤمن بالتزام المؤرخ أو بتاريخ يسهم في (التغير الاجتماعي). وهذا ما يبدّل تبديلاً كبيراً ممارسة المهنة ذاتها (مادامت الأوهام وخيبات الأمل كثيرة).

إننا لن نلمح إلى هذه الخلافات - إلا لما - وهي جديرة ربما بكتاب ضخم.

5 - إن الأفكار المبيّنة في هذا المضممار أفكار عدة: الباحثون يخلطون في الغالب، (ولاسيما على صعيد الجمهور الواسع) المؤرخ بالروائي، وبالصحافي، وبالكاتب، (بعالم) الاجتماع أو بالخرج، وكل واحد منهم يذكر الماضي على شاكلته: غير أن صنعة المؤرخ تخضع لبعض قواعد محددة، وضعية^(**)، وهذه الصنوف من الخلط المسرف باليسر تشوّه في الغالب صورة المؤرخ.

6 - وكما هي الحال في كل (مهنة) يوجد بالضرورة وهم عن الذات: المؤرخ، شأنه شأن الطبيب، يؤمن يقيناً بفائدة ما يصنع، وذاك أمر لازب لتحمل ضرورة العناء وأدران المهنة: ولكن لا يوجد مؤشر للنجوع (اذ لا يوجد مريض يراد شفاؤه). وعندنا أن الأمر إلى حد كبير أمر لعبة ذات قواعد معقّدة، وأحياناً

(*) إضراب العمال. فرنسا (1871 - 1890) 1974 ج 1 ص 12

(**) المدارس التاريخية ص 86 - 88

غامضة، ولكن هذا التصور يرفضه بعض المؤرخين الذين يؤمنون غالباً بأن التاريخ بحث عن الحقيقة أو أنهم يخلطون بسذاجة، وبخطر، التاريخ بالعلوم الدقيقة. وتلكم أمان علمية المنحى قد تبدو اليوم بالية - ولكننا نحترس من ولوج ميدان الخصومات المتصلة بقيمة التاريخ الفلسفية، وهي خصومات تتجاوز كثيراً مانرمي اليه. فلنحمل القارئ على كتب (ريمون آرون) R.aron أو (بول فاين) P.veyne أو (بول ريكور) P.ricoeur

* * *

ثابت أن من الصعب معرفة ماالمؤرخ: ومثلما هي حال المهن كلها، فإن من الشاق جداً أن يفهم الملاحظ الخارجي ماذا يصنع، وإن الذين يحيون داخل المهنة لا يكادون يتحدثون عنها، إما خفراً أو حذراً. ومن البين أن عمليات المؤرخ، وفعاله، وما يحقق، لا ينحل البتة، كما يحسب بعضهم، الى (نقد شهادات)، ولا يمتزج لذلك بتحليلات التاريخ تحليلات فلسفية مزعومة (فلا شيء اعظم خطراً من خلط التاريخ بفلسفة التاريخ). وليس المؤرخ بانسان العقل، بل إنه انسان من لحم ينظر ويتخيل، ويحلم، ويألم، وهو ذو أهواء، وشغل، وطماح. ومن هنا تنشأ صعوبة الوصف مذ أننا نريد بلوغ الجانب الحي من المهنة. وليس بممكن الاقتصار على أقوال معقمة، ولا على تحليلات مهدئة، ولا على موضوعية المؤرخ أو نقد الحوادث التاريخي. ماذا نقول لطالب درجة الأستاذ Maîtrise أو الاطروحة مما يجعله يفكر في مايفعل أو سيفعل؟ ماهي الصورة التي نقدمها اليه؟

إننا نودّ أن نجيب هنا عن بعض الاسئلة (وهي ناحية اخرى تُطرح بصدد كل مهنة):

من أين تصدر موهبة المؤرخ؟ (الفصل الأول)

كيف تطورت المهنة؟ (الفصل الثاني)

ماهي أسس المهنة؟ (الفصل الثالث)

- ماصعابها؟ (الفصل الرابع)
- ماحوافز المؤرخ؟ (الفصل الخامس)
- ماالمخاطر التي يتعرض لها؟ (الفصل السادس)
- هل يوجد استعمال جيد للتاريخ؟ (الفصل السابع)
- ماالمهم في التاريخ؟ (الفصل الثامن)
- ماجمهور التاريخ؟ (الفصل التاسع)
- ماالتسويق اليوم وغداً؟ (الفصل العاشر)
- هل نستطيع تحديد توقعات المهنة في المستقبل؟ (الفصل الحادي عشر).

الفصل الأول

كيف يغدو المرء مؤرخاً؟

إن الدروب التي تقود الى مهنة المؤرخ دروب عدة. والطريق (المبجل) اليها هو طريق (الجامعة): ثقافة عامة مكتسبة في صف (الإعداد لدخول الجامعة) (Khâgne) إجازة، تخرج، دكتوراه.

إن مؤرخ المستقبل يهيء تدرجه حين يعدّ رسالته لنيل درجة أستاذ (ميتريز Maitrise) حيث يبدأ الإطلاع على البحث عن الوثائق ويأخذ بتأليف كتاب. وهذه الرسالة (أحياناً متميزة) ليست بصورة تقليدية سوى مسودة الأطروحة الكبرى التي ستتيح له ولوج التعليم العالي.

لقد كان إعداد رسالة لنيل دكتوراة الدولة يستغرق سنوات عدة. ولكن البحث التاريخي في فرنسا كان يتقدم عبر هذا النمط من الرسائل. وعلى الرغم من ذلك، فقد أُنقِدَ لأنه (ينهك) المؤلف. وقد جُنح الى استبداله برسالة قصيرة لايجاوز إعدادها خمس سنوات، ويتلوها تأهيل هو شرط ضروري للتعليم في (الجامعة).

ومن الجائز أن نتساءل عما إذ لم تنتج عن هذا الإصلاح ضربة قاصمة لجودة البحث التاريخي في فرنسا. ومهما يكن في الأمر، فإن الأستاذ، وقد تحرر من هم رسالته، وبالرغم من واجباته التدريسية، يستطيع فيما بعد أن

ينصرف الى نشر مقالات أو كتب إما تخصصية أو تعميمية. إن جلّ المؤرخين الفرنسيين، منذ (لافيس) Lavissee، هم خريجو (الجامعة).

وإلى هذا الدرب يجب عزو (مدرسة شارت) L'Ecole Des Chartes L'Ecole المكلفة تكوين محافظي مستودعات المحفوظات والمكتبات. مسابقة صعبة، وتعليم تقني جداً، تتوجهما رسالة من مستوى رفيع. انها الحاضنة الثانية للمؤرخين الفرنسيين بميل شديد الى الشارتيّة من جراء تكوين متين في علم قراءة الكتابات القديمة واختصاص في العهود التي لاتكاد قراءة الوثائق مما يطاله غير الاختصاصي.

أما اذا تعذر المرور بهذا النمط من الدراسة أمكنت المتابعة في (المدرسة العملية للدراسات العليا) L'Ecole Pratique Des Hautes Etudes في (الصوربون)، أو في (مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية) (L'Ecole Des Hautes Etudes en Sciences Sociales) وهي القسم السادس القديم من المدرسة المذكورة. وقد حظيت باستقلالها منذ وقت قريب. إن القبول في (المدرسة العملية للدراسات العليا) لا يستلزم أية شهادة، وقسمه الرابع خاص بالعلوم التاريخية والفيلولوجية، وهي تكوّن مؤرخين في تاريخ الرومان ولا سيما في مجال العصر القديم والوسيط (وقد ظل هذا القسم خلال زمن طويل يرفد (المدرسة الفرنسية في رومه) L'Ecole Francaise De Rome بالطلاب) حتى تاريخ باريز (لقد احدثت محاضرات ميشيل فلوري (M. FLEURY) تأثيراً كبيراً في البحث الأثاري في العاصمة). ومن الممكن بالانطلاق من رسالة نوقشت في (المدرسة العملية لدراسات العليا) الانزلاق الى الحلقة الجامعية الثالثة.

وفي وسع الجامعيين أو خريجي (شارت) أو حملة شهادات (المدرسة العملية للدراسات العليا) الذين يريدون الانصراف الى البحث التاريخي حصراً أن يتجهوا الى (المركز القومي للبحث العلمي Le Centre National) الذي يعتمد الألقاب DE LA RECHERCHE SCIENTIFIQUE

لدى اختيار تنهض به لجان من الاختصاصيين. وهناك يمكن الاضطلاع بممارسة عمل: مهندس، ملحق، باحث، مدير بحوث (وهذه الوظيفة الأخيرة تضاهي استاذ جامعي). وعلى الرغم من ذلك، فإن البحث الفردي (لقد كان المدرس يطلب اجازة لستتين أو أربع سنوات حتى ينجز رسالته) أضحى شيئاً فشيئاً غير محبذ في CNRS. فالأفضل ترجيح جانب (فرق البحث) و(المخابر) دون أن تكون النتائج بديهية جداً.

ومن الممكن كذلك ولوج صرح التاريخ عن طريق الصحافة. أجل، هناك سوء ظن تقليدي بسعة معرفة الصحفي المثم بأنه يعمل عملاً لاحقاً وسريعاً. ولكن من ميزة الصحفي أنه يعرف السيطرة على الحوادث ويعرضها عرضاً جلياً دون أن يُغرق القارئ في لجة من التفاصيل.

ان الصورة الجسيمة الكبيرة لـ (هنري امورو) H.amouroux (تاريخ فرنسا الكبير في ظل الاحتلال)، هي من صنع صحفي كبير انقلب مؤرخاً، وعلى الرغم من ذلك فانها معتمدة.

زد على ذلك أن الروائي الذي يعوزه التخيل قد يتحول إلى مؤرخ. انه يقحم الحياة في كتابه، ولكن تجارب الروائيين الذين غدوا مؤرخين لانتكاد أن تكون ناجحة إلا في حالات استثنائية نادرة.

أفلا يكون الساسة أفضل المؤرخين؟ إن زادهم من التجربة الشخصية يجعلهم في الغالب أقدر من الانسان واسع المعرفة البار على فك ألغاز مؤمرات أسلافهم. لقد نجح (هانوتو) HANOATUX أو (هريو) HERRIOT في الماضي، ولجح اليوم (اودغار فور) EDGAR FAURE و(موريس شومان) M.SCHUMANN. و (آلان بيرفيت) ALAIN PEYREFITTE أو (فيليب ساغان) SEGUIN PHILIPPEE في مشاكسة (كليو) CLIO. ولكننا لاننسى أن (آلان بيرفيت) خريج شارع (اولم) ULM وأن (ادغار فور) حائز على درجة التخرج في تاريخ الحقوق.

وثمة اخيراً الهواة، فضوليو ماضي مدينتهم، أو أقليمهم، أو مجرد

أسرتهم. انهم لا يتخذون بحوثهم مهنة، ولكن ابحاثهم تنمو في الغالب على حساب مهنتهم. ولولا الباحث المحلي الواسع الاطلاع ما كان التاريخ الكبير على ما هو عليه.

المؤرخ اذن قد يكون استاذاً في (كوليج فرنسة) COLLEGE DE FRANCE أو كاتباً لهجاً ذا موهبة كمؤلفي الإذاعة، منبر التاريخ. وقد يكون اهتمامه بالتاريخ صادراً في طفولته عن قراءة (الكسندر دوما) A.DUMAS أو عن فضول نحو الماضي أو عن الايديولوجيا. المهم في الأمر هو الهوى ولكنّه هوى تُعدّله طريقة صارمة^(*).

(*) إننا نحيل على ج. تويلار وج تولار: الطريقة في التاريخ، وهو منشور في هذه السلسلة.

الفصل الثاني

تطور المهنة

1 - صور التاريخ

لم يكن المؤرخ محل تقدير في القرن السابع عشر. وقد سخر (ديكارت) DESCARTES في (مقالة الطريقة) من التاريخ الذي يسيء المحاكمة، ولا يبدو أن يكون فرعاً من الشعر والخرافة: «عندما يكون المرء مشغولاً بإسراف بمعرفة ما كان يجري في القرون الخالية يصبح في العادة جاهلاً بإسراف بما يجري في القرن الحالي». ويصرح (لاموت لوفايير) LAMOTHE LE VAYER بجلاء سنة 1638 في (مقالة التاريخ): «يتفق المعلمون كافة على أن التاريخ جزء من فن الخطابة. ولذلك يقول (كنتيليان) QUINTILIEN إن التاريخ شديد القرب من الشعر حتى أنه أشبه بقصيدة حرة دونما قيد. والواقع أن التاريخ يقدم لنا الأشياء العارضة والحقيقية بمثل هيئة وصف الشعر لنا الأمور الجائرة وشبه الحقيقية». إن احداً لا يصدق التاريخ حقاً. التاريخ ليس سوى مسألة تجار الآثار والفضوليين والعارفين^(*).

(*) انظر بصدد روابط التاريخ بالحكم الملكي كتاب (ب. باريت - كريكل): (B.BARRET - KRIEGL) : الجمهورية اللايقينية 1988 ولا سيما (م. فيمارولي) M. FUMAROLI . التاريخ والابستمولوجيا في العصر المدرسي - في «اليقين واللايقين في التاريخ» 1987 PUF ص 87 - 101

وقد سخر (لابروير) LA BRUYERE منهم بخبث في مؤلفه (السجاية)^(*): «لا يعرف (هرماغوراس) HERMAGORAS من هو ملك هنغاريا؛ وهو يُدهش لأنه لم يسمع بمن يذكر ملك بوهيميا. لاتحدثوه عن حروب فلاندره وهولندا. اعفوه على الأقل من أن يجيبيكم. انه يخلط العهود، ويجهل متى بدأت، ومتى انتهت، معارك، حصار. كل شيء جديد في نظره. ولكنه عارف بحرب العمالقة. وهو يتحدث عن تطورها وعن أدق تفاصيلها. ولا شيء منها يفوته. وهو كذلك يفكك الاختلاط الرهيب بين المملكتين: البابلية والآشورية، وهو يجيد معرفة المصريين وأسرهم. وهو لم ير (فرساي) قط، ولن يراها أبداً. وكأنه قد رأى برج (بابل) إذ أنه يعدّ درجاته، ويعرف عدد المهندسين الذين أشرفوا على هذا الأثر. ويعرف اسم المهندسين. هل أقول إنه يحسب أن (هنري الرابع) هو ابن (هنري الثالث)؟ إنه يهمل على الأقل معرفة أي شيء عن أسر فرنسة والنمسا وبافيرا: يقول وهو يسرد عن ظهر قلب لائحة طويلة بأسماء ملوك ميديا وبابل: مهلاً دقائق قليلة، وإن اسماء (ابرونال) APRONAL و (هيريجهال) HERIGEBAL و(نوزنمورداخ) (NOE SEMORDACH) وماردوخمباد MARDOKEMPAD مألوفة لديه مثلما نألف نحن اسم (فالوا) VALOIS و (بوربون) BOURBON. إنه يسأل هل إن الامبراطور قد تزوج للأبد. ولكن أحداً لن يجيبه بأن (نينوس) NINUS كانت له زوجتان. يقولون له إن الملك كان يتمتع بصحة رائعة. وهو يتذكر بأن (توطموزيس) THETMOSIS، ملك مصر، كان ضعيف البنية، وانه ورث ذلك عن جده (اليفارموتوسيس) ALIPHARMUTOSIS. مالأمر الذي لايعرفه اطلاقاً؟ مالشيء الذي أخفي عنه عن العصر القديم المبجل؟».

إن تاريخ المعرفة الشاملة في القرن الثامن عشر تاريخ ثانوي، هزيل، موضع اهتمام الأوصياء، أو البنديكتيين، لهو في أحسن الأحوال. ولم يُحمل التاريخ محمل الجد ويصبح قضية دولة إلا بعد الصدمة الثورية: فقد أراد

(*) يجب ذكر الصفحة لأن بعض السمات هي حالية دوماً.

(نابليون) NAPOLEON لإحداث (مدرسة خاصة للجغرافية والتاريخ) وفيها عشرة كراسي للتاريخ، بغية تكوين إداريه ودبلوماسيه.

التاريخ يُدرّس في كليات الاداب، وفي (كوليج فرنسة). و (مدرسة شارت) تكون اختصاصيين. وقد غدا المؤرخ موظفاً، وصارت المعرفة محل إجلال: تخرج (سلفستر بونار) SYLVESTER BONNAR من (المدرسة) - وهو أتمودج المؤرخ الأدبي الوحيد الذي نعرفه: فلم يتجرأ لا (بلزاك) BALZAC ولا (زولا) ZOLA ولا (بورجه) BOURGET على وصف المؤرخ، وابتكار أتمودج مؤرخ^(*). أصبح التاريخ علماً، وصارت المهنة تُقلم في حلقات بحث (على الطريقة الالمانية) أو في (مدرسة عملية للدراسات العليا) (التي أحدثت عام 1868): المؤرخ عالم واسع المعرفة يراكم جذائاته^(**) وهو يفرق في التفاصيل، ويعيش في عالم آخر.

شرح المؤرخ بالانخراط في المعركة السياسية في إثر قضية (دريفوس)^(***) (DREYFUS) فقد كان سيفتون SYVTON استاذ تاريخ مثل بانفيل. وصارت درجة التخرج تقود إلى النيابة البرلمانية، الى الوزارة (ولكن شخصاً مثل دالاديه DALADIER لا يكاد يشرف المهنة). ومن البين أن هذه الصورة لم تتغير منذ سنوات 1930^(****): المؤرخ الذي يراوح، الذي يناضل من أجل جبهة الانقاذ الوطني FLN أو من أجل الفلسطينيين، الباحث الذي يحسب انه يعمل من أجل الثورة وهو يدرس الاضرابات، والاستاذ الذي ينوي ممارسة هيمنة سياسية؛ إنها صور صارت مدرسية، وقد اسهمت قليلاً في تشويه سمعة

(*) إن الصورة الأدبية للمؤرخ مختصرة جداً (بينما قدم بلزاك صورة عن أتمودج محب الجمع في «ابن العم بونس»، ونحن لانكاد ندري لماذا.

(**) جذائاته: قطع صغيرة، مكشّرات، قراضات...

(**) المدارس التاريخية 1990 ص 34 - 35

(****) التبدل المادي الوحيد هو ظهور باحثين متفرغين في CNRS منذ 1950 وهم يمثلون نمطاً خاصاً من المؤرخين ماداموا قد انقطعوا مبدئياً عن التدريس.

الجماعة: ذلك أنه في سني 1975 - 1985 أدى تراجع الماركسية، و(نهاية الايديولوجيات) الى الخطّ كثيراً من شأو ذلك التاريخ الملتزم، وكانت خيبات الأمل جد كبيرة حتى ان المرء لا يكاد يؤمن بالتقدم ولا بدور طبقة الكادحين. وقد أظهر الاحتفال بذكرى 1789 بوضوح ضالة الاهتمام بتاريخ (مسيّس) بإسراف : واليوم، من ذا الذي يجرؤ على الادّعاء بأنه استاذ حقيقة؟

غير ان صور المؤرخ قد اضطربت في الوقت ذاته: انهم يخلطون باستخفاف، التاريخ بالصحافة (هل التاريخ المباشر تاريخ؟)، التاريخ بالانشاء الفلسفي (او السياسي) - إن أمثال (ب. هـ. ليفي) B. H. LEVY أو (ريفل) REVEL لا يتهضون بعمل مؤرخين - يخلطون التاريخ بالرواية التاريخية . (ولكن مثل جاك لوران J. LAURENT . يجيد اللعب بالتاريخ).

ونجم عن ذلك أن ساد اعظم اختلاط وبات من الضروري التذكير بأن المؤرخ ينهض بمهنة مؤرخ، وانه يخضع لبعض قواعد المهنة، والى نوع من أخلاق المهنة، وهذه القواعد لاصلة لها بقواعد عمل الفيلسوف أو الروائي.

2 - أفكار عن المهنة.

من الشاق جداً لِمُ أطراف أدب مهنة المؤرخ: ذلك لأن أفكار الفيلسوف، من (بوسويه) BOSSUET إلى (ريكور)، ومن (فولتير) VOLTAIRE إلى (آرون)، لم تعالج إلا قليلاً ممارسة المهنة ذاتها، ولا تحليل مايصنع المؤرخ. لقد كتب (مارك بلوخ) MARC BLOCH سنة 1941 - 1942 ، في ظروف مفعجة، إمتداح التاريخ أو مهنة المؤرخ: وهو كتاب لم يتم، ومن هنا صعوبة تفسيره، ولا بد من إعادة قراءته. وقد كان في مكنة (لوسيان فيف) (*) L. FEBVRE و(الفونس دوبون) (**) A.DUPRONT أن يكتبنا «مهنة

(*) القسم الاساسي من خواطره يوجد في (معارك من أجل التاريخ). ولكن قد توجد في أوراقه ملاحظات لم تنشر ومراسلات مهمة.

(**) انظر: التاريخ بعد فرويد FREUD. مجلة التعليم العالي 1969

التاريخ» ولكنهما أحجما بدافع الحذر أو الوسواس. وإنما فلاسفة من أمثال (آرون^(*)، ريكور^(**)) ومؤرخو العصور القديمة من أمثال (مارو^(***) MARROU، بول فاين^(****)) هم الذين كتبوا في موضوع صناعة التاريخ، ولكنها كتب صعبة المنال، لا يكاد المؤرخ الشاب يفيد منها. ان الكتابة في موضوع (صناعة) التاريخ هي بوجه التقريب تصدّ لمحظور. والانتقادات تصدر عن جهات أخرى.

الانتقاد الأول:

كان (اناتول فرانس)، A.FRANCE هذا البنديكتي الماكر، يسخر في (جرميّة سلفستر بونار) من دعاوى التاريخ العلمي المزعج: فالشاب الشارتي (الجيلي) عاشق جانه، صرّح لـ بونار، تصريحاً تام الجلاء، بأنه (لا يؤمن بأن التاريخ علم، أو بأنه سيغدو علماً ابداً): «أوه قال لي: أولاً ما التاريخ؟ إنه تمثّل مكتوب لحوادث ماضية. ولكن ما لحوادث الماضي؟ هل هو أي حادث؟ تقول لي: كلا، إنه حادث بارز. ولكن كيف يحكم المؤرخ على حادث بأنه بارز أو غير بارز؟ إنه يحكم عليه بصورة تعسفية، بحسب ذوقه وهواه، يتبع فكرته أو أخيراً حكم فنان! ذلك ان الحوادث لا تنقسم بطبيعتها إلى حوادث تاريخية وحوادث غير تاريخية. ومن ناحية أخرى، الحادث شيء معقد غاية التعقيد. فهل يمثل المؤرخ الحوادث من حيث تعقدها؟ ذلك محال، فهو سيمثلها مجردة عن جلّ الخصائص التي تميزها، وبالتالي تكون مخرومة، مشوّهة، مختلفة عما كانت عليه. اما علاقة الحوادث بعضها ببعض فلنحجم عن الكلام عليها. ولن

(*) المدخل إلى فلسفة التاريخ 1938 و: أبعاد الوعي التاريخي 1961.

(**) الزمان والحكاية 1983.

(***) في المعرفة التاريخية الطبعة الرابعة 1960 ومهنة المؤرخ في التاريخ وطرائقه -

موسوعة لابلاد 1961 ص 1467 - 1540.

(****) كيف نكتب التاريخ 1971.

كان حادث تاريخي ناجماً، وهذا امر جائز، عن حادث أو عن حوادث غير تاريخية، وهي مجهولة من هذه الناحية، فما سبيل المؤرخ، من فضلك، لابرز علاقة هذه الحوادث بعضها ببعض؟ وأنا افرض (...) ان المؤرخ يلقى أمامه شهادات ثابتة، في حين أنه لا يثق بهذه الشهادات أو تلك إلا لأسباب عاطفية. إن التاريخ ليس علماً، بل هو فن. والمرء لا ينجح فيه إلا بالتخيل^(*). ومن البين أن مقالة (جيلي) الشاب تنم عن حس سليم: ولكن المؤرخين ينسون في الغالب قراءة (جرينة سلفستر بونار) التي تصيب في تقطير الشك.

الانتقاد الثاني:

كان (بيغي) PEGUY يريد وضع رسالة عن نظرية التاريخ، ونحن لا نملك عنها سوى مفردات أولى (الرسالة 1909). غير أنه عالج موضوع مهنة المؤرخ مرات عدة في (صباح نصف منير)، (1904 نشر سنة 1952)، وفي (وضع التاريخ وعلم الاجتماع في الأزمنة الحديثة) (1906)، وفي (ملاحظة مواكبة الى السيد ديكارت) (1914)، اذ سخر بخبث من المزاعم العلمية لبعض المؤرخين - علماء الاجتماع^(**) واحتج على سيطرة (الطرائق العلمية) التي

(*) نشرت جريمة سلفستر بونار سنة 1881 . ولكن (مارك بلوخ) مافتى حانقاً على صورة المؤرخ التي ذكرها (اناتول فرانس): « ان (سلفستر بونار اللطيف الهارب) سيكون جديراً بأن يمثل كأه راع، أو القديس التعاوني لطائفة تامة من المؤرخين الذين كانوا على وجه التقريب معاصرين فكريين لمن حكى حكايتهم: عمال شرفاء كل الشرف، ولكن أنفسهم قاصر قليلاً...) وهم متأهبون للتصاغر تصاغراً كافياً أمام زملائهم الخبيريين. وهم بوجه الاجمال اميل إلى توصيتنا بالخلد منها إلى الوثوب». ولكن أليس في ذلك تصور للتاريخ جد معقول؟

(**) تعوزنا دراسة جيدة لتصور التاريخ منذ (بيغي)، والنصوص غزيرة، وقد كان (بيغي) خبيثاً: ألم يقل لـ (بندا) BENDA بصدد كتابه عن (جان دارك): «إن تفوق الكبير على (ميشله) MICHELET هو إنني توصلت إلى جهل أنها قد أحرقت».

تنجب تاريخاً جافاً^(*):

«لقد حققت علوم التاريخ قدراً من التقدم منذ مائة عام، وربما منذ الأزل. وقد أصبحت أشبه بعمل، غرضها سحق الماضي. وهي، بصرف النظر عن الاحترام الذي يترتب علي نحوك، معمل محفوظات غذائية. إن لها طرائق، ومراحل، وأنابيب، ومخازن. وأخيراً فإن لها كل مايلزم. وانه، بوجه الدقة، معمل تبريد، لأنه لا يحفظ إلا في البرد (وما أن تعود الحرارة حتى تعود الحياة). وبفضل ذلك نجده يجلب الطمأنينة، واليقين، والسكينة، على غير مايباع في الحوانيت المواجهة (ان الدور المواجهة ليست سوانا: الإيمان، اللاهوت، الفلسفة، الميتافيزياء، الأخلاق، الحياة المدنية، الاقتصاد، الشعر، الفنون التشكيلية والفنون الموسيقية: أي الواقع، بإيجاز»^(**).

لقد أجاد (بيغي) فهم دروس (برغسون) Bergson: ولكن نقده التاريخ ذا المزاغم العلمية والسوسيولوجية، حيث يبالغ في تأثير (الطرائق) كان نقداً لا يكاد يفهم.

الانتقاد الثالث:

لقد اساء المؤرخون كثيراً تقدير انتقادات (بول فاليري) p.valiry - حاول (لوسيان فيفر) L.FEBVRE الحيلولة دون انتخابه عضواً في (كوليج فرنس) سنة 1937 - إذ أن خواطره وملاحظاته كانت في أغلب الأحيان أدنى الى مدرسة الحوليات^(***): ولكن (فاليري) كان ينكر بحزم أن يكون التاريخ علماً.

(*) لقد كان يهزأ كثيراً من «هؤلاء الشباب الصغار المتكلمين، الشباب الهزيلين الذين يملكون الأدوات والطرائق امتلاكاً تقريبياً متفاوتاً ولكنهم لا يملكون أي مضمون. كما لو أن جهل الحاضر هو الشرط اللازم لبلوغ المعرفة».

(**) ملاحظة مواكبة 1914.

(***) لم ينهض أحد بكتابة أية دراسة شاملة لنظرة (فاليري) إلى التاريخ. والواقع أن النصوص مبثرة جداً: نجد بعضها في «الفكرة الثابتة» (1932)، وفي «خواطر تتعلق بي» (1943)، وفي «نظرات» (1945) وفي «مبادئ فوضوية محضة وتطبيقية» (1948)، ولا سيما في «الدفاتر» وهي مخطوطة. وقد استؤنف بعضها في المختار، ←

وهذا ما يفسر الغضب الناجم عن هجماته على التاريخ، ولا سيما في «نظرات الى العالم الحالي»^(*) (1931). بيد أنه سيكون من اليسر أن نبين أن لدى (فاليري) تصوراً جد حديث للتاريخ، تصوراً جديراً بالاهتمام دوماً.

- كان (فاليري) يكره حركة (العمل الفرنسي) و (موراس) (MAURRAS) وكان يدين من علي مزاعم المؤرخين بأنهم يلقون دروساً، ويعلمون الشعب: ولقد كان يستهدف التاريخ ذا المنزع القومي، وكذلك كل تاريخ (أيديولوجي). وكان شديد الحذر من استخدام الاحزاب، أو الدولة للتاريخ، ومن المخادعات الصادرة عنه: (التاريخ يصلح لمنع رؤية الحاضر).

- كان يلفت الانتباه (ونحن لانستطيع تخطيطه) إلى رفض المؤرخين الإفصاح عن مواضعاتهم: «إن مأخذه على التاريخ هو ضالة وعيه بما هو، بالمهنة التي يعتقها، بما يستجيب له (السذاجة)، وبما ينتج»^(**).

وكذلك: «المؤرخ - كما الفيلسوف - وكما الطبيب، ليس لديه حتى فكرة التفكير في المواضيع التقليدية وقطع اللعبة التي يلعبها. بل إنه لا يرتاب حتى في ما يصنع. وإن ذلك لعبة بوجه الدقة (وما قطعها سوى بعض كلمات اللغة الانتمائية). كلمات هي بالدرجة الأولى ممتنعة على التعريف...» وبكلمة واحدة، يجب إعادة تحديد المواضيع: «الإصطفاء، التصنيف، التعبير عن الحوادث التي وصلت إلينا أمور غير مفروضة علينا من جانب طبيعة الأشياء. إنها بلا ريب نتيجة تحليل وقرار صريحين؛ إنها على الدوام تخضع عملياً لعادات وسبل تقليدية من الفكر والقول، ونحن لانرتاب باتسامها بسمة طارئة أو تعسفية...». وهو يطلب أن تأتي «تعريفات ومواضيع جليلة وخاصة» لتحلّ أخيراً محل «الدلالات الأصلية المختلطة والإحصائية». بيد أن صنوف

← دفاتر، مكتبة لأبلياد ج، 1974 2 ص 1447 (ومايلي). وسيكون من الضروري إعادة نشر جملة النصوص حول تاريخ (فاليري).

(*) المصدر السابق

(**) الدفاتر ج 26 ص 42

التقدم لم تكد أن تكون حساسة في هذه النقطة منذ نصف قرن.

- يسخر (فاليري) - تماماً كما يسخر (اناتول فرانس) - من مزاعم التاريخ العلمية، من (موضوعيته الظاهرية): «إن التاريخ لا يعلمنا سوى المؤرخين: هل لهم اسلوب، فطنة، موهبة في مهنة، جعلنا نؤمن بوجود (اسباب) أو (قوانين) (.....) إنه فن : لأقل ، ولكن لا أكثر(*)».

- إنه يقلق بازاء الميوعة الخطرة للمفردات «لو لم يكن المؤرخون اطفالاً لفهموا أن المسألة ليست بالأمر اليسير لدى النطق بهذه الكلمات: قَوْن، شعب(**)».

- التاريخ يهمل الأساسي وما لا يخلف اثرًا: إن اكتشاف بطارية (فولتا) VOLTA اكثر أهمية من تاريخ (الثورة)، فهو يستلزم صنع تاريخ الكهرباء، وتاريخ الحياة الجنسية، أو تاريخ داء الزهري (ندرك اذن مدى اقترابه من امثال (لوسيان فيفر). لنقرأ الفكرة الثابتة:

«عشاء جيد، مقام جيد، وهذا الباقي الذي نتحدث عنه، وانني لأرجع بالتاريخ كله إلى هذه المحاور الثلاثة.

» - ولكن يا صديقي، إن التاريخ لا يعنى بالبشر! تاريخ الكتب. التاريخ الذي نعلمه لا يهتم إلا بالحوادث الرسمية. إنه على الأخص مجموعة صور وأحياناً تفحص الهويات (....).

» - (يقول الطبيب: الحق معك مائة مرة صدّق أن إدخال الزهري الى أوربه حادث يفوق بأهميته قليلاً أهمية معاهدة (اوترخت) (....). وهم لا يبتشرون عنه ببنت شفة...».

وفي أمكنة أخرى، يذكر (فاليري) بأن «التاريخ الذي نعلمه لا يفطن البتة

(*) خواطر تتعلق بي ص11

(**) مبادئ فوضوية ... ص 166

إلى تقديم أية فكرة عن جريان الأمور شيئاً فشيئاً. مثال ذلك دور الشرطة، وهو مهم جداً في جميع الأنظمة، ولكنه شبه أساسي في القرن التاسع عشر للسياسة المتعاقبة لأربعة نظم (..) كل شيء يحدث كما لو كان بطريق السحر أو بأفكار عامة، بينما يجب الاضطلاع باستبيان لا يخلو من التعقيد، والاحجام عن تصديق التفاسير. لا وجود لتفسير (....) وكل كتاب تاريخ لا ينتهي الى فكرة الاختلاط والمصادفة فهو عمل سدى...».

اننا نرى جيداً أيا نزع (فاليري): الى تاريخ يرفض السياسة، ويفكر في اجرائياته وموضوعاته، ويوسع استتيانه، ويرفض فكرة السببية. وتلكم مقولات معقولة جداً: إن المؤرخين يجترحون أفدح خطأ اذ لا يقرأون (فاليري). فلو فعلوا لوجدوا مسالك للبحث، وان خواطره الحية جديرة بكتب مطولة .

إن ما يستحوذ على انتباه الملاحظ عام 1991 - الى جانب (فاليري) - هو العوز العام للتفكير في موضوعات المؤرخ لدى ادراكه الماضي. ومن شان تأثير الماركسية المنتشر، والايان بتاريخ (ملتزم)، والتقاليد ذات (المنزع العلمي) في المهنة، أنها تفسير غياب القلق الملح اليه بصدد المهنة: اننا لانكاد نخرج من هذه الفترة الرمادية.

الفصل الثالث

ما المؤرخ؟

المؤرخ يعاني عندما يعرف ما يصنع: فهو لا يحب الاطناب في الحديث عن ذلك^(*)، بل انه يشعر بالقلق فور ذكر مواصفات المهنة، ويفضل الزهو بطماحات علمية (التاريخ جزء من «العلوم الانسانية»:)، وهو يستخدم تقنيات تسمى (علمية)، ويمتج من علم الاجتماع، وتأتي الاحصاءات والخطوط البيانية ليتخذها تموهيات ممتازة). والحق ان التاريخ حرفة يدوية: المؤرخ لا ينشد (قوانين) - فذاكم زعم سخر منه (فاليري) - وهو لا يستطيع اجراء تجريب، بل إنه يعيش في النسبي، في الجائز، في الفريد، وهو يسيء الظن (بالأفكار): انه ممارسة، براعة خاصة يعسر تعريفها أشد العسر لكثرة لبسها. لنذكر بإيجاز بعض الصوى (العلامات).

1 - خبير الزمن الماضي

المؤرخ خبير الزمن الماضي: ونحن نتيبن افتراقه عن الفيلسوف وعن عالم الاجتماع. ولكن الفلاسفة يزعمون، هم أيضاً ، تفسير الماضي. ويسعى علماء

(*) هناك رفض جد مألوف لذكر هذه المشكلات بسبب كثرة المنازعات السياسية أو الأيديولوجية التي تثير مشاعر الرابطة حول معنى التاريخ أو فائدته: كان (الفونس دوبرون) A.DUPRONT. يصرح سنة 1964: (إن عوز التفكير في مايفعل المؤرخون، وفي جلاء معناه، أمر يبعث الدهول). ونحن نفضل أن ندع الفلاسفة أو مؤرخي العصر القديم يتحدثون عن مهنة المؤرخ...

الاجتماع إلى الافلات من أسر الحاضر والصعود إلى الماضي: الأمر الذي يقود إلى معارك لانهائية(*)، حتى أن ثمة بعض الازعاج لدى الكلام على المهنة، على صناعة المؤرخ، فور محاولة الخروج من الحقل الضيق لجمع (الشهادات ونقدها، أو تفسير (المصادر) (**). وقد آل الاسراف في مناقشة فائدة - أو لا فائدة - التاريخ وعلاقاته بالمجتمع ودوره الاجتماعي، آل في الغالب إلى إرباك وضوح الأمر المهم في مهنة المؤرخ، أعني عمله المعاش، طرز حياته ومناقشته مهنته. ألا إن الأمر بديهي: ، اذ غير مجيد الاهتمام بهذه (الشؤون البتلة)، والتفكير في ممارسة المهنة أو في جملة واجباتها، وتلكم هي الأجوبة التقليدية، وذاك زمن ضائع على حساب البحث. أن يعاش الاقتصاد القياسي، أو اللسانيات أو المعلوماتية: تلك هي ذرائع ممتازة لانصرافنا عن التفكير في ممارسة المهنة أو في أخلاق المؤرخ - فلندع هذه المعارك المذهبية التي كثر ما أثارت اضطراب المنظر منذ نصف قرن (لقد كلف التاريخ الملتزم) التفكير في التاريخ غالباً***). ولنحاول طرح بعض الاسئلة لإنارة سبيلنا:

السؤال الأول: من ذ الذي يدعى مؤرخاً؟ ينبغي أن نميز دوائر عدة:

1 - المؤرخون المحترفون، الجامعيون الذين يعلمون التاريخ، المتفرغون للبحث.

2 - المؤرخون المتمون إلى «تخصصات» أخرى (الاداب، العلوم، الفنون) الذين يملكون معرفة (تقنية) إلى جانب كونهم خبراء في شؤون الماضي.

3 - محافظو المحفوظات، والمتاحف، والمكتبات العامة، الذين يصونون

(*) انظر بصدد الخصومات مع علماء الاجتماع: (بول فاين): كيف نكتب التاريخ؟ (1971)

(**) لا يوجد فيما يبدو أي تعليم أو أي بحث يتصل بصميم التاريخ. وقد كان (لوسيان فيفر) يمتنى لإحداث علم اجتماع للتاريخ لم توضع بعد حتى مسودته (معارك من أجل التاريخ ص 438).

(***) انظر: المدارس التاريخية 1990 ص 40 وما بعد

التراث ويعملون عمل المؤرخ (إن دليل معرض من المعارض عمل من أعمال التاريخ. ونحن ننسى ذلك في الغالب).

4 - المؤرخون (غير المحترفين) الذين يعنون بالتاريخ طلباً للذة، دون أية منفعة لنشاط شغلهم، كتاب عدل، أطباء، مهندسون، أساتذة، أو إداريون. وهم يهتمون إما بتواريخ (تقنية) جداً (مثلاً بتاريخ الكهرباء أو تاريخ علم النفس المرضي)، وإما بالتاريخ المحلي.

يتضح إذن أن كلمة مؤرخ تدل على وقائع جد متباينة، وإن معناها يختلف باختلاف هذه الفئات (*): وهذا ما ينبغي أن يقود إلى بعض الحيلة (**)، وأحياناً إلى توترات شديدة جداً: التاريخ الجامعي يزدري في الغالب ازدرأً كبيراً، على نحو ما ذكر بذلك (بول لويليوت) P.LEUILLIOT ، البحاث الواسعي المعرفة المحلية وهم مستقلون عن (الازياء الذائعة) ولا يعنون بالاقتصاد القياسي (***) إلا قليلاً. ذلك إن المؤرخ (غير المحترف)، وهو يعمل ابتغاء للذة، يتحلى ببعض الميزات: انه لا يهتم بعمل في منصب، ويستطيع توجيه ابحاته كما يشاء، وهو غير متعجل، وفي مكنته أن يتمتع بالوقت كما يحلو له...

السؤال الثاني: ان ممارسة المهنة تميظ اللثام عن تنوع مذهب؛ لقد كان من اللازم جرد مختلف أصناف المؤرخين: (الصحافي)، هاوي الجمع، واسع المعرفة على طريقة (سلفستر بوفار)، صاحب الرعاية محب التوجيه، المذهبي، الرائد أو المبتكر الذي يحاول التجديد وارتداد مجالات مجهولة، الشمولي، «المشرف على سلاسل البحث» السياسي، الميتافيزيائي (صنف نادر)، المجادلي، «المرشد»، مخيب الآمال.... كان يجب إقامة صالة لصور نمطية، ولكن اتوغرافيا المؤرخ ماتزال دراسة ينبغي التصدي لها.

(*) المصدر السابق.

(**) يكفي تصفح مجلدة من مجلدات (المنشورات السنوية في التاريخ) حتى نرى أن التاريخ الجامعي - أي التاريخ الذي نستخدم أعماله من أجل العمل في منصب - ليس سوى جزء بسيط من الانتاج التاريخي.

(***) انظر بول لويليوت: التاريخ المحلي والسياسي للتاريخ - حوليات 139 1974 ESC -

السؤال الثالث: إن كلمة مؤرخ كلمة مهزوزة تغطي صوراً عدة متشابهة:

- صورة تقني الماضي الذي ألف الماضي وأجاد مداولته وتفسيره وهو يقدر على بناء ماضٍ معين واستغلاله
- صورة خبير ينظر من خارج الى الحاضر ويحسن الانفلات من الأشياء ونضد آفاقها وهو يمارس شكاً منهجياً: وهذا يقود الى صورة حكيم، ربي لا يضل بصدد أهواء البشر.
- صورة انسان متوحد لا يتصف البتة بانه انسان عملي، وقد بُد عن الأمور المهمة وعاش بمنأى عن العالم، مع كتبه، وبمنجى من كل مجازفة.

ومن البين أن هذه الصورة التقليدية راسخة جداً في أعماق العقول - حتى ولو حاول بعض المؤرخين اليوم - عيشاً - أن يكونوا علماء ملتزمين سياسياً وقادرين على اعطاء دروس، إن لم نقل التنبؤ بالمستقبل.. إن المؤرخ هو بالدرجة الاولى انسان يثير الحلم: وهذا ما يوضح نجاح (مونتايو) MONTAIGLOU أو درب الملوك. إن (ريشليو) RICHELIEU و(ناپليون) NAPOLEON و (ديغول) DEGAULE آلات تدعو الى الحلم: ولا ريب في أن هذا الدور التخيلي للجسم الاجتماعي أكثر أهمية من مزاعم العلم المتوهمة. والمؤرخ انسان اختصاصي بالتخييل: وهذا ما يفسر وضعه الملتبس. ولقد عاد التاريخ اليوم الى تصوره الأقدم. انه «ضرب من رواية تستعملها عقول بصيرة وذات فضول» (اناتول فرانس). وان الروائي والمؤرخ يقومان تقريباً بمهنة واحدة - على نحو ما ألمح اليه (فاليري)^(*): «أما التاريخ (بالمعنى المؤلف)، فإنه جملة كتابات، وهي تُقرأ، وتسلي. ولكن أحداً لم يستطع تحديد الفارق بين الحالة الذهنية لمن يقرأ (بلزك) ولن يقرأ (ميشله). وعندي أن هذا هو كل شيء. انه الشعب ذاتها.

(*) في رسالة عن التاريخ الى (اناتول مونزي) A.MONZIE. عام 1942 (انظر: الآثار - مكتبة لابلاد ج 1960 2 ص 1547 - 1548)

وينتج عن ذلك ان شيئاً لا يميز، من حيث التأثير الحاصل، وثيقة حقيقية عن وثيقة زائفة نحسب انها حقيقية...»

يبد أن (المذهبيين)، (والعلميين)، لا يكادون يحبون التذكير بهذه القرابة الاصلية. فكل جيل تصوره للتاريخ: إن المؤرخ اليوم اختصاصي بفرار الزمان، بحركية الاشياء، بتفاعل الاهواء البشرية: وفي عالم قلق، شديد الحركة، حيث تتغير الآفاق بسرعة، وحيث لا يكاد المرء يؤمن بالتقدم، المؤرخ قد يمنح بعض كفالة استقرار، وأمن، وتقريباً نظام. ولعل ذلك هو الدور الاجتماعي الحقيقي للمؤرخ^(*).

2 - ما يصنع المؤرخ

لنبحث الآن ما يهب المهنة وحدتها، وما يشكل سميتها الخاصة (أن يكون المرء مؤرخاً مدى الحياة: ومن النادر أن يسمى المؤرخ فيلسوفاً أو شاعراً^(**)).

1 - الفضول

إننا نعرف حق المعرفة كنه حساسية المؤرخ، كيف ينشأ هذا المزيج المعقد من التخيل، والطفولة، والانغماس في الماضي، وتجربة المعاش، وقدرة البصيرة، وروح الدقة والأثرة، والسخاء، والهوى الطوعي، مما تمثله حساسية المؤرخ - إن موهبة المؤرخ - إذا ما برحنا نجرؤ على استعمال هذه الكلمة - هي أمر سرّي. إنها

(*) تُرى أمن الضروري التذكير بان المؤرخ، من حيث مهنته، هو قريب من الاداري؟ إنه، على شاكلته، انسان نظام، وهو يذود عن نوع من النظام، يقدر مالاً الأمر، وماعليه، وهو يطرح أسئلة جيدة، ويميط اللثام عن فجوات المحاكمة، وهو حذر، ربي... وكذلك فإن المؤرخ قريب من مهنة الجندي: ينبغي أن يكون قادراً على اعطاء الأمر، وعلى التكيف مع الموقع، وعلى التحليل، وعلى تقدير الموقف. (وقد كان المؤرخون غالباً إبان الحرب ضباط استخبار).

(**) ولكن شخصاً مثل (الفريد موري) A. MAURY. كان اختصاصياً بالحلم. والمؤرخ، بوجه عام، يتجه بالحري إلى السياسة.

نداء، جاذبية الماضي التي تلتزم بها حياة إنسان، تراكم أحلام، وارادات، وحدوس لامتمايزة، وانعكاسات، وحساسات: إن لدى كل مؤرخ تجلي، فيما يبدو، «ذاك الشيء، الخفي، المبهم، والسامي الذي يعش حماسته» بحسب صيغة (سلفستر بونار). لنطلق اسم الفضول على هذه «الرغبة اللامعقولة» بارتيد الماضي، بفهم الأشياء الميته، هذه القدرة على عشق كائنات زالت قبل مائتين أو ثلاثمائة سنة: إن المرء فضولي لما هو خفي، غامض، لامعين، ممتنع على الفهم. يريد أن ينيره، أن ينظم اختلاطه، أن يصنّف، أن يفسر ماجرى، ولكنه كذلك فضول لما يتصل بالآخر. انه يريد الخروج من ذاته - شأن الروائي: فهم الآخر، الحياة من خلال الآخر، السعي لفهم كيف كان يعيش، ويفكر ويحكم، كيف كان يعيش ويفكر ويتألم يعقوب انجر ANGERS، أو رئيس معمل (لانجر) LANGRES، فذاكم هو المؤرخ. وهو يُعنى أكثر ما يُعنى بالجزئي، بالتنوع، بالفرد، (حتى لوزعم زاعمون بدافع تشوّه ايدولوجي أو ادعاء علمي المنزع، أو هوى سياسي انهم يطردون الفرد من التاريخ، وانهم يكفون عن الاستدلال دون خطوط بيانية، ونماذج، وذلك سرعان ماقاد الى بعض المبالغات). : «التاريخ حسبما يكرّر بول فاين مشروع يحركه الفضول وحده»، ولا صلة للتاريخ بنشدان قوانين أو صلات سببية. ويسخر (بول فاين) قائلاً: «يمكن ان نسهب جدلاً عن التفسير التاريخي ودور القوانين والعلوم الانسانية في التاريخ، وعن نظريات التاريخ الكبرى، والحتمية التاريخية، الخ. ولكن ثمة واقعاً كتلياً وأولياً ينبغي ألا يغيب البتة عن البال: التاريخ رواية حقيقية، وإن التصور الذي يعتنقه المؤرخ عن [السببية] التاريخية هو بوجه الدقة عين السببية التي يعتنقها الروائي ويستخدمها في روايته: لذا فإن من المدهش ان تدرس كتب عدة السببية في التاريخ. لماذا في التاريخ بوجه الدقة؟ إن الفائدة الابستمولوجية لمثل هذه الكتب ستكون هي ذاتها لو أن مؤلفيها كانوا درسوا كيف يفسرون لنا طلاق (دوبون) أو حادث أن (دوران) قد قضى عطلته الصيفية في الجبل بدل أن يقضيها على ساحل البحر. ويقول أبسط أيضاً: يمكن دراسة السببية في التربية العاطفية أو البحث عن الزمن المفقود»...

الفضول اساس المهنة. حب الصيد، والتتبع، امر أساس في هذه الحرفة: بيد ان هذا الفضول الذي يمتد الى كل شيء - كل شيء موضوع تاريخ - يفترض توافر كثير من الفطنة، من الحيلة، من مرونة الفكر، من الحصافة. يلزم - من اجل الحياة من خلال الآخر، فهم الآخر. توافر قدرات تعاطف، وضبط تخيل يجعلان المؤرخ جيداً. ان يكون المرء مؤرخاً انما هو حب الحياة في جميع أشكالها: بلذاتها واهوائها: المؤرخ ليس وصياً صارماً ولا غمماً. بل هو محب للحياة، محب للطعام الجيد ولما بقي، يسعى إلى لذته، ولا يعزل نفسه في غرفته. ونحن نعرف النكتة الشهيرة التي رواها (مارك بلوخ) عندما كان في ستوكهولم مع المؤرخ البلجيكي (هنري بيرين) H. PIRENNE: «ما أن وصلنا حتى قال لي: [ماذا سنرى أولاً؟ يبدو أن هناك داراً جديدة للبلدية]. لنبدأ بها. ثم أضاف وكأنه يود التحذير من دهشة : [لو كنت بائع عاديات لما فتحت عيني إلا على الاشياء القديمة ولكنني مؤرخ ولذا فإنني احب الحياة]»^(*). لاريب في أن الاختصاص المسرف والمذهب أو الالتزام السياسي يتزعان بالمرء الى تضيق هذا الفضول وتحديد حقل الرؤية - إن المؤرخ المعني بالاقتصاد القياسي يحتقر في الغالب اللوحات الفنية ولا يكاد يجمع الاختام - ولكن فقدان الفضول على هذا المنوال أمر خطر على الدوام. وقد كان (الفونس ديهون) A. DUPONT يقول: (التاريخ باعث العزلة): لا مناص من الانتباه إلى هذا الخطر الموصول.

2 . القدرة المعمارية.

كان (لوسيان فيفر) يكرر: «لاهندسة معمارية دون مشروع معماري، ولا تاريخ دون فرضية عمل» وهذا هو الجانب الأقل بدهاة، والأقل ذبوعاً من جوانب المهنة. المؤرخ يعيش أربعين عاماً: إنه يعمل بحسب مشروع،

(*) امتداد التاريخ طبعة 1974 ص 49

مشروعات، وبينى شيئاً فشيئاً آثاره (مالكتاب إلا حلقة من سلسلة كتب). إننا نبني، أي نحلم، ونبدأ الإنجاز، وننجز.

ومن الثابت أن أكثر الخطط تنظيمياً إنما تبدلها ضرورات الحياة، فالمشروعات تُصلح، وتُهمَل، وتُستأنف. ولكن ثمة على الدوام بعض اتساق في عمل المؤرخ. بعضهم يحفر الدرب ذاته، وآخرون ينتشرون عبر مهمات عدة (الأمر الذي يوسع آفاق رؤيتهم، ويزيدهم خبرة، «وينتج» أحياناً تاريخاً أفضل). بيد أن المؤرخ يحيا فعلاً في الخامسة والعشرين أو الثلاثين من عمره بحسب حدوسه، بحسب اختيارات أولى (انظر فيما بعد الفصل السادس)، ووفق احلام مبدعة تشكل أساس (عمله المتصل): المصادفة، الحظ «ما من سياسي بدون حظ». لقد كان (ادغار فور) يقول: (لا يوجد سياسي دون حظ)، الصداقات تُعدّل في الغالب الاتجاهات الأولى، والمرء يغزو السلطة، ويدود عن أرض، والقدرة المعمارية تتحول، يرسخ المرء سلطانه، يرهن على روح مبادئته، يؤلف «جماعات»... فالتنظيم والأمر والقيادة والتنسيق والتسديد كل ذلك يكون عندئذ جزءاً من المهنة ويفترض ميزات دبلوماسية، واستحسان المصالحة، وحس الاعتدال^(*). وليس من السهل الحكم على عمل مؤرخ من جراء هذه الانعطافات ذاتها، وهذه التبدلات، وهذه الطفرات في المشروعات (وأحياناً تكون «اعمال الشباب» هي الأفضل من الناحية الكيفية). إن إرادة بناء شيء ما هي أمر أساسي لدى كل مؤرخ: انها تعرب عن ارادته البقاء.

3 - قدرة التخمين

لا يكتفي المؤرخ بتفسير مؤامرة، بالتفكير بالماضي، ولا يقتصر على مجرد الفضول أو ارادة المبادرة. كان الاب (بوجه POUGET) يقول: ليس الفهم رؤية

(*) كان (بول لويبيوت) يلاحظ (في المقالة المذكورة) أن المؤرخ (غير محترف)، المؤرخ المحلي، ينزع إلى التبصر، فهو يتسكع ويتمتع بوقته، ولا يهتم إلا قليلاً بالتنظيم أو بالقيادة، وليس لديه في أغلب الأحيان مشروع متسق.

هذا الشيء ثم ذاك، الترتيب، ثلاثة نقط والنهاية، بل هو شعور مسبق بشيء ما^(*).

الشعور المسبق: انه ذاك الحدس باللائميين، بالغامض، باللاشكل، بالخفي الذي يشكل صعوبة المهنة: المؤرخ يسعى إلى ادراك مايقاوم. ادراك الكتيمة، الضمني، ما لم يقل، يحلم بما كان، أو بما كان يمكن أن يكون، يحيا على حدوده، على رؤاه التي تبدو ضرورية، يراكم ظنونه (إن قدرة الحلم قوام المؤرخ الجيد)^(**) التاريخ في أغلب الأحيان شيء يشوّه، يصغر، وإن جمع الجذاذات لم يكن البتة بأفضل الطرق: لا بد من التنمية، من تعمق شعوره المسبق، ابراز (أفكاره الغامضة)^(***)، الاهتمام باللامرئي، بما لا يقال، ولا يكتب، بما يأتى (قد تكون لما لا يقال أهمية تساوي أو تبدّ ما يقال، ونحن نعرف ذلك بتجربة كل يوم في الحياة العملية). إن مواهب حدس المؤرخ أمور خفية: يجب أن يكون المؤرخ قادراً على إثارة الحلم، وليس ذلك مما يتحلى به كل إنسان.

4 - هم الموت

المؤرخ يهيب لمهنته الكثير من ذاته: ولا بد من ان يعقد خبير الزمن الماضي هذا صلات متميزة مع الموت. المؤرخ يتناول الماضي، ينقب في الاشياء الميتة - حوادث، اهواء، أفكار - انه يحيا في الماضي، يسلم عمره في بناء مذاهب فوق أمور غابرة، في (عكسه بالتفكير) زماناً لاعكوساً، زماناً لاينال، زماناً صائراً لامحالة الى الاخفاق، الى النسيان. ومن البين ان المرء لا يستطيع دونما عقابيل قضاء عشرين سنة، أربعين سنة من حياته مع الماضي - حتى لو كان الماضي قريباً

(*) لوجيا LOGIA ص 10

(**) المصدر السابق ص 50

(***) الكتاب، أي كتاب، شيء مشوّه في الغالب. فالمرء يهمل إبان الطريق - بذريعة الصرامة أو فقدان الوقت - كثيراً من الحدوس والأفكار الملموحة، على الرغم من أنها اساسية، وثمة فارق كبير بين الاحلام الأولية - أو خلال البحث - وبين انجازها. ولو أن المؤرخ (كتب يوميات) عن أبحاثه لأمكن ادراك أهمية مايدع.

بالنسبة للمؤرخ المعاصر - في ان يحيا أحياناً (في الماضي)، (متسقاً) مع الماضي - وهو يزدرى الوقائع الراهنة. إن صلة المؤرخ بالموت أمر اساسي. وإن مهنة المؤرخ تشوّه، تخلق ارتكاسات يسودها شعور فرار الزمان اللاعكوس. المؤرخ يتحلى بالشعور بالاخفاق النهائي، وهو ينظّم اشياء ميتة، إخفاقات، عالماً منتهياً، عالماً آيلاً سلفاً الى الغياب، الى الدمار. لاتاريخ دون قبول الفراغ، أي الغياب، الثقوب، الوفيات، وهي في الغالب أضخم من حالات الحضور^(*). وهذا الانغماس في الماضي الذي يدرسه المؤرخ يحيل على موته وهو بمعنى من المعاني استباق موته. إن (الكون من أجل الموت) ماثل سلفاً في كل مكان بالنسبة للمؤرخ، شأنه لدى الطبيب^(**) المرغم هو كذلك على التعايش مع الموت. ولكننا نشاهد أيضاً، تويهاً لهذا الجزء السري، امتناعاً طوعياً عن ذكره، أو عن افساح المجال لظهور غريزة الموت هذه: اوليس من العسير أن نعيش بقبول هذا الحدس عن الموت، وان رفض كل صلة عاطفية بالموت أمر يلزم المهنة التي تفرض بعض الاحتياطات.

إن غريزة الماضي، وحدس الموت، هما، وينبغي أن يبقيا (كما هي الحال عند الطبيب) أمرين مدفونين في الأعماق، بل منفيين. فالمرء يثق بالحس المشترك، يبدي الإيمان بأن ذاك الماضي هو أمر حاضر دوماً، وأن التاريخ خصب يتيح الفعل، وانه ممارسة: وإن حيل المؤرخ كثيرة ليموّه واقع انه اختصاصي بالأشياء الميتة. وإن مهنة التعليم لتمتزج لدى المؤرخ بارادة القوة، بالانخراطات السياسية أو غير السياسية، كما تخفي هذه الغريزة المسترخية، غريزة الموت. وقد تتفاوت شدة غريزة الماضي والإحساس بالموت تبع اختلاف السن، وإن المؤرخ في الثلاثين من عمره قد لايشعر بالارتكاسات عينها، وبالحدوس وبالاستشعارات ذاتها عن الموت على نحو ما يشعر به المؤرخ في سن

(*) الفونس دوبرون: الحاضر، الماضي، التاريخ (في التاريخ والمؤرخ. أبحاث ومناقشات المركز الكاثوليكي للمفكرين الفرنسيين - حزيران 1964 ص 16).

(**) انظر (ج.ث. سورنيا) J.C.SOURNIA. اسطورية الطب الحديث 1969.

الستين. إن لدى كل مؤرخ ارادة مبدعة، ارادة بقاء خاصة، وهي تختلف باختلاف السن: فالمرء يريد في الثلاثين النهوض بأثر، أن يخلّف طابعه، أن يضمن لنفسه بعض الديمومة، وفي الأربعين يشعر أحياناً بانطباع أنه ابتعد عن الحياة، وأن المهنة تلتهم جلّ وقته وأنه يحيا بأوهام، وأن قدرته المبدعة تتضاءل؛ وفي الخمسين أو الستين يشعر شعوراً قوياً جداً بقلّة الوقت الذي بقي، ويصبح متعجّل صنوف التكريم، لامتسامحاً، يذود عن حقيقته في وجه الشباب. أجل، إن (صناعة التاريخ) طريقة للسيطرة على الزمان، ضرب من قسر الزمان: وكذلك يجب أن نفطن إلى نخوم هذا الخطاب العقلاني عن التاريخ. المؤرخ يلقي بعض الصعاب الخاصة لمواجهة الموت وفرار الزمان: انه ينجح في تشييد عالم عقلاني، مجرد، ذكي، مفهوم، ينجح بتفاعل خرافات، في الافلات من هذا الهم، وفي تحويل اخفاقه الى يقين، والإيهام بالأمن المذهبي. ولكنه يدرك - بالغريزة - بان عمله وكذلك عمل أسلافه - آيل الى النسيان، إلى الموت، وأن ليس بممكن الافلات بالتاريخ من أسر الزمان.

المؤرخ يموت مرات ثلاثاً: موت إداري، في الاحالة على المعاش، واستلاب السلطة، وفقدان (الميدان). وموت فيزيائي، وهو الأقل خشية، الأقل إثارة للخوف ربما، وهو الظاهر الأقل اهمية، واخيراً موت الأثر الذي، مهما تكن جدارته، آيل الى البلى، الى الكفّ عن ذكره، وهو الأكثر فاجعية. إننا عرضة للافهم نفسية المؤرخ وحيله المعقّدة للافلات من مصيره، حيله ليبقى أثره، اذا أهملنا هم الموت الملمّع اليه: اذا وقفتُ (س) سنة من حياتي على القيام ببحث معيّن فلا مناص حقاً من أن يكون لذلك معنى.

الفصل الرابع

مهنة شاقة

خطأ الظن بأن التاريخ مهنة سهلة: إننا نصطدم بألف عائق. وعندما يكون المرء شاباً ممتلئاً حماسة لا يرتاب بوجود مثل هذه الشوك ذات الأهمية. ولكل مهنة المشكلات ذاتها بوجه التقريب - ولكن من الأيسر صنع تاريخ تافه أو تاريخ سيء^(*). ولذا وجب اجادة الوعي بمقومات صعب المهنة.

1 - ضغط الجماعة

يقع المرء في اغلب الأحيان في شرك مهنة مبهمة حيثما يترتب عليه بأن واحد أن يعلم، ويوجه، ويبحث، ويتعرض لضغط انقلابي جد شديد: فالجماعة تضغط عليه ضغطاً قاهراً عبر المعلمين، والزملاء، والأصدقاء، (والمؤسسات)، والتمارين الجامعية، وطلبات المجلات، وأوامر الناشرين. انه يخضع لشبكة من الالتزامات ويجد نفسه - منذ شهادة التخرج - ملزماً في الغالب على العمل المشترك، لأن منظومة التعاون النقابي ترفض المنعزلين: الباحث المتوحد لا يحظى باستحسان ولا يستطيع الفوز بنشر منتظم، بل تظل (فرق العمل) تجهله. وإن

(*) سيكون من الضروري جداً الاضطلاع بدراسة عن المؤرخ التافه وعن مصادر تفاهته: ماالتفاهة في التاريخ؟ وعندما يقول قائل على استحياء: (إنه مؤرخ تافه)، فأية أحكام مبيتة نقاية يعبر عنها؟

المنافسة بين مؤرخي الجيل الواحد منافسة حادة، يرقب الواحد سواه، ويحسد غيره، ويؤكد الفوارق، ويبرز مجاله، ولكنه شاء أو أبى ينأى قليلاً عن جماعته. إنه يشاركهم الأهواء ذاتها، والدروب ذاتها، والارتكاسات ذاتها (كم من مؤرخ بين سنتي 1950 و 1970 أفلت من غواية التاريخ الاقتصادي؟). وإن المؤرخ ليود ان ينتج مثل الآخرين - الأمر الذي لاينجم عنه دوماً نتائج جيدة: إن خطر التبعية خطر كبير جداً (ومثلاً في الأعمال الجمعية (الرمادية)، و«التراكيب» اللاهثة بإسراف).

لاريب في أن بعض المؤرخين يحاولون المقاومة، ومناهضة الجماعة، ويرفضون (الشائع العامي). وهم يتحلون بفكر نقدي، ويشيرون انفصامات، ويعارضون التكتلات، والمعلمين: بعضهم يؤلف (عصبة منشقة)، فينظر اليهم على أنهم عقول بالية أو هدامة، (متمردون)، وهم يعتزمون الحفاظ على استقلالهم، ولكن كتبهم تقابل بالصمت (والصمت طريقة أنجع من النقد)، وهم مرغمون على دفع ثمن استقلالهم الذاتي، يحذرهم الآخرون^(*): إن اللاتبعية أمر كرهه ومن شان طريقة الانتقاء الجديدة - مع اسلوب التأهيل - انها تزيد إقلال فرص هؤلاء المستقلين. في وقت واحد تتعايش ثلاثة أو أربعة اجيال من المؤرخين^(**) - وهذا مايفسر التباغض والمصادمات والخصومات بين الاطراف، وهي في الغالب تلجم معدل التجدد (كم من المجالات ترضى بنشر مقالات (غير متقيدة؟). إن بعض المؤرخين الشباب يقصرون في الغالب حتى عن تأكيد ذواتهم، وابرار اختلافهم عن سواهم، وهم يضطرون للاستكانة (والدخول في الصف). وقد تنحرف المنافسة بين المؤرخين أحياناً: العطف يختص غالباً (الطلاب الصالحين)، العقول المؤاتية، فيكون المرء مرغماً، شاء أم أبى، على اتباع خطوط الانتاج (ان نشر مقالة يفترض توافر من يدعم، ويكفل،

(*) هناك (حالات تحريم). لقد حرّمت (الحوليات) خلال زمن طويل مثال

(اريس) ARIES و (جيرارده) GIRARDET.

(**) نرى ذلك جيداً في التاريخ الديني حيث تطلعننا ثلاثة أو أربعة تيارات متعارضة.

ويحمي)، وقد يمتنع في الغالب نشر كتاب يسبح عكس التيار^(*). ذلك أن مراقبات جديدة تنهض هنا وهناك: وإن التفكير الاتباعي يزداد شيوعاً شيئاً بعد شيء.

2. الاحتراف

تفترض ممارسة المهنة كثيراً من الجهد، والدبلوماسية، والمهارة. وليس للجميع مواهب واحدة، ومرونة واحدة. فالتعليم الجامعي يقوي الوثوقية، ويذيع المذهب الجيد، ويؤكد يقينيات، ويكون مريدين (يكررون حرفياً طريقة «المعلم»)، ويحيا في الغالب على معتقدات بالية، والاطروحة - هذه التحفة المتقيدة بالتقاليد الحرفية^(**) - تؤثر تأثيراً كبيراً في ممارسة المهنة، والمرء يصطدم بلا اكتراث المشرفين (كان شخص من طبقة بيير ليون P.LEON يتذمر لأن استاذاه المشرف لابروس LABROUSSE لم يسأله البتة هل هو متزوج وله أولاد)، ويصطدم بفقدان الوقت (المرء يضيق وقتاً كثيراً بين المجالس واللجان والندوات)، وبنقص المصادر (وذاك قلق تقليدي لدى «طالب الدكتوراه»). ولكن الواحد يفعل في الغالب كما يفعل الآخرون، يستسلم للعيش، ولا يفتق حقاً إلا على قيمة أعماله، ولا يكاد يفكر في مايفعل (إن الدراسات الاستمولوجية جداً نادرة)، وهو يخضع للآزياء (إذا كان الآخرون يذكرون تراجم حياة فهو كذلك سيضع تراجم حياة...). إنه يمضي حيث يمضون، الأمر الذي يسبب نتائج كارثية للبحث في الغالب.

أما اللاجامعيون الذين يكتبون للمتعة فإنهم لايشعرون بمثل هموم الاحتراف هذه، ولديهم حرية سلوك أوسع، وهم يعيشون بمنأى عن الأزياء و المنافسة، ويجيدون كبح طماحهم، ويفيدون من الزمن المتاح لهم، ليسوا على

(*) سيزيد التأهيل المستند إلى أساس الأعمال حساسية هذه المشكلة الموصلة إلى المجالات أو إلى دور النشر.

(**) يترتب على الاطروحة الجديدة، من جراء إحداث التأهيل، ألا تغير القواعد تغييراً كبيراً.

عجل من أمرهم، يتمهلون كيف شاؤوا. «إن المؤرخ المحلي الراع في بحبوحة الزمن يؤمن بالصبر، وبالتدقيق في الجذاذات، وب (الحادث الصغير) (...)، وهو سيء الظن بالتفسيرات السهلة، وبالمشكلات المحلولة في الظاهر، أو المحددة تحديداً مسرفاً، والمعينة تعييناً مسرفاً..) وهو لا يتسائل عن مشكلات تتصل بدلالة التاريخ أو المنهجية، ويشتمز من الخصومات المذهبية أو الفلسفية ومن نظريات التاريخ المجرد»^(*). إن لضيق أفق المؤرخ اللامحترف فوائد في بعض الأحيان: إنه يبين ما يمكن أن يصنع المرء حين يكف عن هموم الاحتراف ويتكر قواعده الخاصة، وينعم بلذته دونما قسر^(**).

3 - صعاب التدريب

إننا لانكاد نجرؤ على الحديث عن هذه الصعاب: فتدرب المؤرخ تدرب شبه جِرْفِي، نوع من نقل شفهي يتيح تعلم حيل المهنة، شعبذاتها: وان لجان الحكم على الرسائل سرعان ماتعرف هل يتحلى الطالب ببعض موهبة. أجل، عندما يكون الانسان شاباً فإنه يشعر ببعض العناء لتحديد اسلوبه (والواقع أن أية مقالة في التاريخ لاتشبه مقالة أخرى، سواء من حيث التصور أو العرض أو الاسلوب)، انه يعاني من فقدان التوجيهات الجلية، والاحتكاك المستمر مع المشرفين الذين لا يملكون دوماً سعة من الوقت، (يترتب على حلقات البحث ان تعالج ذلك، ولكن ينبغي ألا تضم اكثر من عشرة اشخاص)^(***). وكذلك فانه

(*) بول لويلىوت: التاريخ المحلي وسياسة التاريخ. حوليات 1974 ص 139 - 150

(**) وعلى العكس، يعاني اللامحترف من عزلته وضآلة معلوماته (العرضانية) ودعمه ولا يُطلب منه (وهذه خسارة أحياناً) بذل جهد مذهبي ولا نقل معرفته. يعوزه في اغلب الأحيان غياب المشروع الراسخ، وهو يبدد ذاته، وكل شيء يستهويه.

(***) كان (دوروري) DURURY يقول سنة 1868 ان على المحاضرة في (المدرسة العملية للدراسات العليا) أن تقدم (هذه النصائح الفردية التي تمثل في الغالب السر الوحيد للأعمال الخصبية) وإقامة صلات شخصية بين المعلم والتلميذ. يجب على المعلم أن ينقل للتلميذ (على نحو مباشر أعظم وأكثر اتصافاً بالسمة الشخصية اساليبه في التأليف والنقد والعمل). ولكن هذا التوجيه الفردي يستلزم الحماسة والوقت والصبر. (هذا التوجيه العملي والمباشر والمخصصي) يصبح بطبيعة الظروف أندر اليوم.

يعاني، شاء أم أبى، من الخصومات المذهبية أو من اللغة (وما يثير معاناة كبيرة أن يعين موقعه ضمن حشود الاطراف). وهذا مايفسر دون ريب وجود عدد مسرف من الأعمال اللاهثة، الناقصة، ضئيلة (التفكير)، غير الكاملة: البحوث التاريخية تستلزم في الغالب استثمارات تمهيدية لانتحقيق دوماً: الاطلاع على المستحدث، التجدد، ليس ذلك بالأمر الميسور^(*). المهنة (تولّد القلق)، والمرء يحيا في اللاطمأنينة، ويعمل غالباً دون تبصر، دون برنامج جاد، دون طريقة ذكية، دون رؤية شاملة - وهذه الفوضى (المألوفة) ترجع الى حد كبير عن قصور التكوين الأولي. وإن مسابقات التخرج تجيد التعليم على حسن ادارة الوقت، وعلى (تحديد برنامج)، ولكنها تنسى باسراف في الغالب المبادئ الجيدة. والمرء لايتعلم - وأنى له أن يتعلم؟ - اختيار الموضوعات الجيدة، طرح الاسئلة الجيدة، التفكير في ماهو مهم: وهذا مايقود في الغالب إلى تاريخ أعجف، مجرد، معقّم، مشوّه. كان يجب تعليم فن الالفهم، فن تعقيد الاشياء: المؤرخون يبالغون أحياناً في نسيان واجب التعقيد (لأنهم مضطرون للتبسيط والاختزال من أجل التدريس). وقد كان (فاليري) يلح الى «هذه الحكمة الاخلاقية التي تبدو لي أنها تعرب عن نوع من واجب الفكر: كل مايدو لك جلياً أو بديهاً في النظرة الأولى، حاول ان تجده «غامضاً»^(**).

إن تدريب المؤرخ ينبغي أن يدور حول هذه الحكمة. ينبغي الارتكاس على المبالغة في تبسيط التدريس، اذا الأمر ليس ان نفسر مهما يقتضي الأمر - وهذا مصدر إفقار - بل انه أمر تعقيد يبدو بسيطاً، أملس، سواء تناول الموضوع تاريخ 18 ايار أو تاريخ الولادة: إن عمل المؤرخ هو إفهام ألا يوجد تفسير واحد.

(*) هناك تكاليف الصيانة التي يميل الباحثون باسراف إلى إهمالها: ينبغي على مؤرخ الاقتصاد أن يجيد الاطلاع الحديث على تطور النظريات الاقتصادية وعلى التيارات الفكرية الجديدة بل يجب عليه أن يكتب، اذا استطاع، مقالات في النظرية الاقتصادية.

(**) خواطر تتعلق بي 1943

يتضح تماماً إيان يتجه تدريب المؤرخ، اذا أردنا الافلات من الرتبة: ينبغي أن نعلم - ولكن بأية تمارين؟ - الحلم بما يراد صنعه، ونعلم توجيه الاحلام(*)، وبلوغ حدوس جيدة، وبناء الموضوع. ينبغي كذلك تعليم اجتناب إملال القارئ من جراء الغلو المذهبي أو إرباك الإعداد أو احتقار القارئ(**) ... ولكننا ندرك مدى تعقد هذا التدريب، وكيف انه يتخطى دراسة المصادر وتفسيرها: لنكرر القول انه في اغلب الأحيان تدريب ضحل التفكير وسيء التوجيه. بل انه قد يشوّه أحياناً الحساسية التاريخية ويشوّه التخيل.

4 - الأوهام المهنية

لامناس من أن نخصّ في كل مهنة قسماً من الأوهام المهنية: ولا تنجو مهنة المؤرخ من ذلك. فأوهام المؤرخ عن ذاته أوهام كبيرة في الغالب، وهو يود أن يكون بأن واحد مريباً جيداً، وباحثاً جيداً، ورئيس فرقة عمل جيد، ومؤرخاً جيداً، و (موصلاً) جيداً: ولكن من البين أن كثرة هذه (المهن) تجعل الحمل ثقيلاً مسرفاً في بعض الأحيان فيساء النهوض بهذه المهمة أو تلك - أو انها تتحقق بصورة تافهة. ان الظن بإمكان ان يكون المرء استاذاً جيداً، وباحثاً جيداً - حتى ولو كان ذلك خطأ - انما هو وهم شائع، وهو وهم ضروري لممارسة مهنة جحود. بيد أن المرء يحسب في الغالب أيضاً انه ياتي بالجديد منذ أن يعيش على فرضيات أو وصفات تافهة، سيئة التحقق، أو بالية، يحسب انه ينهض بأعمال مهمة تستحوذ على عناية الطائفة العلمية بينما لاثير هي سوى اللااكتراث المهذب للأقران والاساتذة المشرفين، والمرء يحيا في نوع من الحلم، ويظن أن من الممكن الماضي قدماً - في حين أنه اختار فجوة جد ضيقة، أو بحثاً مثقلاً بالدراسات، أو (دون طائل). فالأوهام عن الذات اشياء مألوفة في المهنة: المرء يفعل مايفعل الآخرون، ولكنه يفعل بأقل جودة من الآخرين. انه يحتقر

(*) انظر بصدد الحلم الفقرة 4 من الفصل الخامس القادم

(**) انظر بصدد الملل: الطريقة في التاريخ 1986 ص 110

سعة المعرفة (أو أنه يسيء تطبيقها)، ويستسلم لنظرات مجازفة وينشر أعمالاً ذات معدل بلى سريع^(*)، يؤمن بالأفكار العامة ويقدم تراكيب سرعان ماتتسى... ونحن نرى بوضوح أسباب هذه الأوهام: المرء يظن في كثير من الأحيان أن كمية الساعات أو عدد الجذاذات المركومة تمثل قيمة العمل - ولا يجرؤ أحد على التحذير من هذه الظواهر - وفي كثير من الأحيان ينجز المرء أعمالاً (اتباعية) وفق (زي) المعلم، وهذا أمر خطر، أو أنه يؤمن إيماناً ساذجاً بفضائل التاريخ (الملتزم)، ويدرس الاضرابات أو حركة الكوزيين GUESDISTES في منطقة معينة - الأمر الذي لا يكاد أن يكون (ذا جدوى) إن التبعية ضعف. وهي قل أن تنتج أعمالاً جيدة، وهي في الغالب ينبوع طماح مجتهد وأعمال مهمة^(**): ينبغي تحذير المؤرخ الشاب.

5 - العزلة

المؤرخ ذو عزلة خطيرة. انه وحده دوماً - ولكنه لا يعرف ذلك - وان مايجنيه من سواء قليل النفع أحياناً (حتى ان توجيهات الاستاذ المشرف قد تكون غير موائمة أحياناً). فالعزلة شر لازب للمؤرخ^(***): انه وحيد مع مواده، مع محفوظاته، مع جذائاته، ومن العسير عليه أن يلقي صديقاً يناقشه تطور بحثه مناقشة حقيقية، يناقشه ارتداداته، ابتغاء فحص معمارية العمل، ووثوق الفرضيات، فهو وحيد يفكر في تخوم المشروع، وطرائفه و(حتى في حالات العمل المشترك، انه وحيد مهما تكن الموائمات). ومن الافضل معرفة ذلك

(*) انظر بصدد البلى: الطريقة في التاريخ - المصدر المذكور ص 39 - 43
 (***) إن دراسة الرسائل المهمة - وأسباب اهمالها - ستكون بلا ريب مفيدة جداً لايضاح بعض وجوه مهنة المؤرخ.

(***) الاساتذة المشرفون يحمون، ويشجعون، ويمتدحون. ولكن لهم بحوثهم الخاصة، وهمومهم الخاصة، ومراكز اهتمامهم الخاصة. ولقد مروا بالتجربة، وبلغوا فلسفة معينة (المرء سيخلص من المأزق دوماً)، وهم يتحلون في الغالب بمزيد من الحذر ومزيد من الوسواس فلا ينخرطون حقاً في النهوض بمهنة المرشد.

مقدماً. ان المهنة، على الرغم من الظواهر، مهنة معترلة حيث لانكاد نلقى عون أحد، إلا فيما ندر. وهذا يقتضي بعض تحديد، بعض تصلب: يبقى المرء حبيس الفرضيات، بعض الاحكام المبيته، لا يستطيع اقامة اتصالات، إقامة جسور ضرورية، ويصبح لامبالياً بالتجديدات الصادرة عن الآخرين. بيد أن هذه العزلة، اذا أحسنت ادارتها، قد تكون خصبة: يترتب على البستاني اذا اراد أن تسمق شجرته علواً عندما يجفّ النسغ أن يشذب بعض الأغصان. وإن نوعاً من الزهد لا يضر من أجل صنع تاريخ جيد. ولكن هذه العزلة قد تنجب شيئاً من الكبرياء أحياناً. (كان اناطول فرانس يقول: «في كل علم قاع من الزهو والجرأة المرة»، تنجب بعض انزواء طوعي ينكفيء فيه المرء على ذاته، ويكون لامبالياً بما يجري حوله.

الفصل الخامس

الحوافز

المؤرخ جزفي: هناك جانب (يدوي) يسرف الباحثون في نسيانه. إن لديه نظره ثابتة تميز الكتاب الجيد، أو الوثيقة الجيدة في كومة المحفوظات، وهو نهاره كله (*) ينسخ، ويصنّف، ويكتب بيده، يتذوق الحادث الجيد، المتقن (**)، الأملس، الدائم، ويتحلى بخصال الذمة، والأمانة، والنّجار. ولكن النجارة لا تفسر كل شيء لدى المؤرخ. ولذا ينبغي المضي إلى أبعد: إن ما يقوم المؤرخ، المؤرخ الجيد، هو شيء أعقد، وأكثر لايقيناً. ونحن لانملك، باستثناء (ميشله)، يوميات مؤرخ تحكي لنا أفراحه، وصعابه، واحلامه، وعواطفه، وهذا مؤسف غاية الأسف (***) . ولكن في وسعنا أن نحاول - اعتسافاً - ذكر بعض صوى تبين حوافز، ومن ثم، تناقضات المؤرخ ذاتها.

(*) وهذا أمر متعب غالباً، ومملٌ. لنذكر تدمير الراهب الناسخ (سان اينيان) (SAINT - AIGNAN) : (انتبه إلى أصابعك! لاتضعها فوق كتابي! إنك لاتعرف مالكتابة! إنها سخرة ساحقة: إنها تحني ظهرك، وتظلم عينيك، وتكسر معدتك وضلوعك...).

(**) يقال عن مقالة جيدة (انها صناعة يدوية)
 (***) يبدو أن مؤرخاً لم يكتب يوميات تتناول هذه الابحاث كما يفعل الانتوغرافيون
 (لنذكر يوميات الانتوغرافية (جائنه فافرت - سعادة) JEANNE FAVRE SAADA.
 وإن (محاولات تاريخ - ذاتي) 1987 هي: ذكريات (أعيد بناؤها).

1 - الحافز الأول: الارادة

تفترض صناعة التاريخ ارادة حازمة موصولة، وان عمل المؤرخ، كل عمله، هو بالدجة الاولى إرادة، وهو يستلزم توضيحات - بالوقت وبالحياة الشخصية(*) - يريد المؤرخ وقف حياته على...، يريد التكامل، تحقيق ذاته في (مسمى)، في (مشروع). يريد أن يخلف طابعه، أن يصارع الزمان الهدام، أن يؤكد اختلافه في وجه الآخرين، أن يتقدم صفوف القطيع. انها إرادة - إرادة تفترض توافر تربية الارادة: سنوات كثيرة من القراءات، ومن التفكير، وتراكم الملاحظات، والتجربة المنهجية، والاحلام الموجهة. وانما تفترض السيطرة على التوترات ارادة دقيقة مبرمجة قاهرة - ونحن لاننتهي من تجميع ضروب (المعارف).. بحسب إتباع خط ما بحزم، ولا مندوحة من تخطي فترات الجفاف، والتراجع، واللايقين، يجب أن يستغل المؤرخ (حدوسه) وأن ييدي المهم، والدائم... أجل إننا لانعرف دائماً ماسينتج عن مثل هذا الجهد، بل اننا نكفّ في لحظة ما عن البحث (عن معرفة أيان نمضي)، ولا نكون مطمئنين البتة كل الطمأنينة على أننا نسير في الطريق الصحيح، وأننا نصنع تاريخاً جيداً. ولكن هذا اللاتعيين يشكل جزءاً من متعة المؤرخ - إنه يلعب لعبة - ويزيد لذة الصيد. وعندما يكون المرء شاباً يكون متحمساً، ويبدو له البحث مغامرة فكرية جديدة، ويحمل أحلاماً جميلة، ولا يتساءل عن ذاته إلا قليلاً، ويحب ان يلعب بالأفكار، أن يواجه الآخرين. وانما حياة المؤرخ الداخلية هذه عنصر رئيس، سيالة من أنصاف - الارادات، من الاحلام الحرة، من الحدوس اللامتمايزة، من الصور المختلطة: وبذلك تتعلق صعوبة البحث وجدته.

2 - الحافز الثاني: الطماح

المؤرخ انسان طموح بالدرجة الأولى. وهو يريد الإقدام، والتجديد، وكسر السوق، ومكافحة رتابة النظام (أو النظام الفرعي): المؤرخ يريد أن يأتي

(*) لقد اسهبوا في الحديث عن (التوضيحات) التي تستلزم الاطروحة، وهي تحفة جرفية.

بجديد، أن يخلق طابعه، (يعطي استطاعته). وإن طموحه شيء غامض، نوع من حلم موصول ذي أشكال متعددة هي في الغالب لامتياز: طماح تفسير، طماح تعليم الحقيقة، طماح حياة عصرية، طماح تجرد (ابتغاء الاختصاص)، طماح بناء أثر، ونحن ندرك جيداً هذه الأشكال المختلفة. المؤرخ طموح لذاته وللتاريخ، نجد التاريخ العظيم. ولكننا ندرك بيسر أخطار الانعطافات، أخطار الانزلاقات: الطماحات العصرية، تذوق السلطة، والإجلال، ومجد وسائل الإعلام، كل ذلك يفسر في الغالب معارك الفرقاء، روح الجماعة، معارك التركة^(*)، شعائر الرعاية والنبد (إن دراسة اتنوغرافية عن التاريخ ستكون نافعة جداً). المؤرخ يحلم بأن يكون رئيس مجاله، إن يكون له مريدون يتملقونه، أن يكون (مستشار الأمير) بل أن يلج السياسة^(**) - أن يكثر عدد النسخ المطبوعة عن عمله - ويحلم كذلك بالقضاء على منافسيه، على أعدائه. ولكن حتى الطماح هذه تمهد في الغالب لحدوث خيبات أمل شديدة: التكريم لا يأتي دوماً، والطماحات المذهبية قصيرة الدوام، وإن المرونة المسرفة، روح التألب والتبعية عرضة للإخفاق: كان (دوميز يل) DUMEZIL يصرح سنة 1986: (لأنني لأحرص البتة على أن يكون لي تلاميذ. فقد عرفت معرفة كاملة عدداً من التابعين ومن الأشخاص الملحقين بالمدرسة ممن يحذون حذو المعلم بحيث أعرف أن ذلك لايفيد كثيراً...).

إن الحذر يوجب الطماحات، بل وسترها (كما أن من الخطر في الإرادة إهداء الغلو في الطماح، فمن الجائز أن يعترض سبيل أو أن يغفل ع الدعم). إن التحلي بالطماح يفترض توافر بعض مهارات يومية، موهبة المصالحة - بل والمكر - لشدة سوء الظن داخل «الوسط». ولكن الطماح ضروي للمؤرخ:

(*) لنذكر معارك تركة (سيميان) SIMIAND بين سنتي 1970 - 1973 (التركة! إن هذه الكلمة ترجع إلى المفردات الريفية: الأمر أمر الذود عن الأرض) (ب. لويليوت).
 (**) كان المؤرخون في عهد الجمهوريتين الثالثة والرابعة ينتمون في الغالب إلى مجلس الوزراء - ويغدون وزراء (من أمثال رامبو RAMBAUD وهوناتو HONATOUX).

فالمؤرخ اللاطموح - منذ البدء - يطرح دوماً بعض المشكلات (*) تُفترض التفاهة دوماً). وان مايلفت انتباه الملاحظ في الغالب هو بالحري لاصَرَد المؤرخ، ورفضه أن يكون طموحاً لاختصاصه، وان يتصدى للمشكلات المهمة، وفقدانه روح الإقدام، وانكفاؤه على بستانه: كل شيء كما لو ان الطماح يبدو له لعبة نافلة وخطرة (ما لم أصنع، سيصنعه آخرون على نحو أفضل). بيد أن موقف الانسحاب هذا هو الأكثر انتشاراً شيئاً بعد شيء، ونحن لانعرف لماذا (**). - الأمر الذي لا يخلو من نتائج تصيب التاريخ اليوم.

3. الحافز الثالث: اللذة

أجل، إن الكلام على اللذة مستهجن: فالمرء يسيء القصد حين يتحدث عن اللذة. من ذا الذي يستطيع الاعتقاد بأن عالماً يشعر بلذة؟ ومع ذلك فإن ما يحرك التاريخ، ويحرك العالم، هو حقاً ارادة اللذة: الرغبة مركز كل بحث (**). مالذة المؤرخ؟ ولماذا تُخفى أو تُنكر؟ إن المؤرخ انسان لذة (حتى ولو كانت هذه اللذة مشوبة بالأشواك أحياناً): من الذي يعرف لذة اكتشاف مشكلة، أو طرحها صحيحاً، أو تتبع مجراها؟ إن حماسة البدء شيء معروف جداً: فالمرء ينشط تخيله، ويشرع بالصيد، ويزيد توقع الكشف ولا يقين

(*) عندما نكتب حاشية رثاء يترتب علينا التساؤل دوماً عن طماحات الفقيده.. المعلنة أو الضمنية.

(**) يرجع هذا الموقف بلا ريب إلى الفردية التقليدية في المهنة، إلى أزمة (الجامعة) منذ 1968 ، إلى رفض تقديم (التضحيات) الضرورية، إلى صعوبة تحديد المؤرخ منزله في فترة المنافسة الحادة، إلى هم الحفاظ على استقلاليته (كل الناس لا يتحلون بروح الجامعة).

(***) يتحدث المؤرخ قليلاً عن لذته ومتعته - وكذلك عن متاعبه. وإن مظاهر التاريخ (العلمية) المزعومة تطرد صورة اللذة: وقد يبدو الاقتناع بأن التاريخ علم (موضوعي) يستخدم اجهزة رقمية، بل حتى لغة رياضية، قد يبدو لبعض الباحثين أنه أمر لا يأتلف مع مفهوم اللذة. وهم يحسبون أن السمة العلمية توجب نوعاً من الوقار. ويبدو أن لذة الصيد، والجمع، لذة (سلفستر بونار)، جدية بالازدراء.

التقصي للذة الخاصة بالصيد، وهي تتخذ أحياناً بمثابة غاية بذاتها. أجل، تبدأ لذات أرشد، أكثر معقولة: لذات صغيرة متراكمة تتيح لذة فكرية، لذة بناء اطروحة، بناء شيء مغاير، مناقضة الجيران (بل فضح أخطائهم). وأخيراً تنشط لذة الكتابة - قد يجلب فعل الكتابة متعاً - والتنظيم، والمحكمة، والعرض، والتأثير في جمهور: لذة ذات وجوه عدة، تتهددها على الدوام البلاغة أو الوسواس.

إن لذة المؤرخ قد تصدر عن ينابيع أرهف وأعقد.

1 - أليست الرغبة أساس لذة المؤرخ بالذات، ولذة نسيان، لنقل (ازدواجيته) وهو يحيا في الماضي؟ ان التاريخ قد يكون (عاصما) من تفاهة اللحظة الراهنة. وقد يشعر المؤرخ فوق ذلك بلذة الهيمنة على الزمان، وأن يعيش ويفهم ماضياً راضحاً ومبسطاً - بينما يصعب الامساك بالحاضر، والحاضر أشبه باللامفهوم: هناك شعور بالتفوق السهل، وهو يفسر بعض الاسراف في عقلنة الماضي. وأخيراً، يجب أن نلاحظ جانب براءة اللذة، هذه اللذة الخام المسألة، لذة الاكتشاف، والجمع، و (الإجادة): تراكم جزايات يتيح العثور على نوع من سعادة مسألة، دائمة، دون (مشكلات).

2 - ثم ان المؤرخ كاتب، يلعب بالأفكار، بالمحاكمات، وهو يفكر كتابةً: إن ألعاب الكتابة، وإرهاف المحاكمات، ينبوع أول للذة المؤرخ الذي لا يتصف، من حيث طبيعته، بأنه لإحصائي، رجل أرقام، وليس عالم اقتصاد، ولا انساناً عملياً.

3 - المؤرخ انسان يعيش بالحدوس، ويشعر بلذة فهم لعبة المصالح والأهواء، واكتشاف الخيط الموجه لـ (مؤامراته)، لعمل في مادة حية - والأبنية الفكرية أمور ثانية وثانوية. إن الارهاق النفسي، والغريزة الضرورية لتخمين لعبة الشخصيات أو الأهواء الجمعية، الذوق، حدس الدقيق، والمضطر، واللاعقلاني، ذاكم ما يكفل لذة المؤرخ ويقوي استمراره.

4 - للمؤرخ لذة أن يكون غيره، وان يكون ذاته، أن يكون بآن واحد خارجاً وداخلاً، إنه مملوء، مفتون بهذا الماضي، بهذه الأشكال، بهذه

الشخصيات الغابرة - حتى بهذه الشخصيات الغامضة التي تقدمها المحفوظات: يضاف الى لذة الفضول البسيطة شكل أرهف من اللذة الجمالية، القرية من لذة الروائي الذي، هو أيضاً، ذاته وغير ذاته. وهذا الانصهار الخيالي، هذه القدرة على التعاطف، يسوّغان لذة المؤرخ الغريزية تسويقاً شرعياً.

5 - كذلك ينبغي أن نأخذ بالاعتبار لذة البستاني الشديدة جداً (ولكن من ذا الذي يجرؤ اليوم على الاعتراف بأنه بستاني؟)، لذة من يجيد حرث ما يملك، وتمهيد دروبه، وتشذيب عروشه: ينبغي اعتبار حصة عاطفة التملك، تذوق الحرفة اليدوية، إرادة الكمال، الطمأنينة النفسية، السكينة الناجمة عن البستنة، وإن المؤرخ الجامعي هو في الغالب جد قريب من واسع المعرفة المحلي الذي يجيد ضبط طماحه، ويلقى في هذا التحديد متعة رهيبة. إن اللذة الجيدة الضبط شكل من أشكال الحكمة والاقتصاد، وهي مرغوبة لذاتها.

وبديهي أن شدة هذ الفویرقات في اللذة تختلف أشد الاختلاف تبع الأفراد: السن تلعب دورها (ليس للمرء لذة «كتابة التاريخ» في سن الثلاثين مثلها في سن الستين)، وكذلك بحسب المهنة: فمن الثابت أن كيفية اللذة ترتبط بما يُنتظر من مهنة أو من (تسلية). فمن الجائز في مهنة ان نأمل الفوز بسلطة، بمهارة، بإمكان سيطرة، و(تأسيس مدرسة) وإن حساب الطماح يقود الى لذة متميزة كيفياً تميزاً كبيراً.

إن درجات اللذة الخاصة بالمؤرخ ترتبط بـ (البيئة)، بالسمة الخاصة بالمؤرخ، بلذة أن يعترف به الآخرون، أقرانه، أساتذته، ان يلج صفوف مدرسة، معبد، (وسط): فهذه العواطف، مشوبة بالتعاطف وبالاقتطاعية، تضاف إلى لذة البحث والمنزلة المهنية، والخصومات، والتألب فتدخل الآسر، الاحتمالي، اللايقيني، (أتراني موضع إعجاب؟ هل أنا مفضّل؟ هل أنا «في الخط»؟). بيد أن ذلك كله لا يمثل سوى جوانب ثانوية. وكذلك يجب ألا نفضل بصدد شدة اللذة: فلذة المؤرخ قد تكون لذة أن يسأم، أي لذة ثابتة، رهيبة، مسالمة، مطمئنة، تكرارية، دائمة، ويعلم الله كم تذخر البحوث التاريخية بالبحوث الطويلة،

الشاقة، الدقيقة، المملّة، ولكنها قد تجلب بعض المتعة الناعمة، الآمنة، الموصولة، شبه المغلقة، ولها جاذبية كبرى: ان شدة اللذة الناجمة عن هذه (الأعمال البنيديكتية) قد تعدل شدة اللذة الناشئة عن البحوث المحمومة أو الشغوفة أو المجازفة أو (الطائشة) التي ينهض بها ادعاء التجديد أو الذين يحسبون انهم مغايرون لسائر المؤرخين. والحق ان إرادة الإقدام، وإرادة العيش، امران مختلفان. ولكن سيكون من الخطر مقابلة لذة (البنيديكتي) الدائمة بلذة المؤرخ المجدد (العابرة): كل واحد يستثمر على طريقته، فثمة من يستثمر ويشعر بلذة الاكتناز والآخر يبحث عن لذة المضاربة ويحب لاقين اللعبة ويتظاهر بالمجازفة، وذاكما شكلا السيطرة على الزمان.

4 - الحافز الرابع: الحلم

يتظاهر كل انسان بالظن بأن المؤرخ يقتصر على الاستدلال، وان عمله يخضع لقوانين دقيقة يكفي أن يطبقها منهجياً. ولكنها نظرة تفقر الأمور: إنها تنسى القسط الكبير للأحلام التي تكتنف العمل قبل إنجازها، وثناء إنجازها، وبعد إنجازها. فالأحلام تدعم الفكر، وتحدد الاختيار، ولكننا لانكاد نجرؤ الكلام عليها^(*) بدافع الوسواس أو المذهب. ولا مندوحة من حلم المؤرخ: انهم يؤكدون عبثاً ان التاريخ علم، فالحلم يلزم كتابة التاريخ، والمؤرخ يحلم بتاريخه، بمشروعاته، بشخصه. الحلم التمهيدي أمر ناجع، وهو يربط العناصر المبعثرة، اللاتينية، ويوسع مدى الرؤية، ويتيح دفع القسر: الحلم يتيح التأمين الضروري، يحل المشكلات، ويتيح اختيار (تاريخه)، (موضوعاته)، أن يتعمق، وينقّب، ويستخلص المهم. انها تقنية تساعد التاريخ: فهي تبين، وتثير، وتقريباً تبرمج. الحلم دعوة للعمل، لارتياذ زوايا الماضي: نحلم بصورة الأمس - إن مادة التاريخ تفترض توافر الحلم حتى تُفهم: الحرف، كتاب العقل، الدعوة، بيان

(*) ان التصورات العلمية أو (السياسية) لمهنة المؤرخ تُبعد، بطبيعة الأشياء، عن تحليل المتخيل عند المؤرخ: وهذا، يفسر ندرة الشواهد المتصلة بأحلام المؤرخ.

الحساب، دفتر الملاحظات، كل ذلك موضوع حلم، غذاء حلم. إننا نحلم بالشخص الذي ندرس سيرة حياته، نحلم بما كان يشعر به، بأفراحه واطراحه، بما كان يحياه. الحلم يوسع التخوم ويؤخرها، يتيح اكتشاف علاقات جديدة، اختراع آفاق، يعمق الفارق بين المعرفة المكتسبة وما يبقى من الواجب اكتشافه، وهو يرمم ما يظل خفياً، ويمسك بتلابيب ما يتوارى، ويتخطى التفكير. الحلم يقدم التخيل الضروري من أجل تاريخ آخر من جراء كونه (لأعاقلاً). إنه يضخم الحدس بماضٍ (حسي) آخر، ويزرع أركان (منظومة) خفية من الادراكات المتوهمة، من الصور الحسية الجاثمة خلف كل تفكير منظم. وهذا الحلم الارتياضي، المتعدد الأشكال، الممهّد لعمل المؤرخ ذاته، لبحثه (المبرمج)، هو الذي يحدّد اختياره، وانجازاته، ويشكّل جزءاً رئيساً من عمله - حتى لو أنكره: إن الأحلام بالماضي لا يمكن فصلها عن كل فاعلية تاريخية: حلم بموضوع، حلم بكتاب، بل بمقالة، قبل فتح اصغر اضباره - ولعل هذا الحلم يمثّل القسم الأكثر أهمية في (الابداع) التاريخي (ولكننا مازلنا بحاجة إلى «تاريخ أدبي للحس التاريخي»...). وهذه الاحلام تواكب المؤرخ طوال بحثه: احلام طليقة تتصل بالوثائق، بالمصادر، بدروب الماضي ، بالحياة اليومية السابقة، احلام تنظيمية، بئاة تدعم الشروع بالعمل (حلم المرء بكتابه قبل بدء كتابته): احلام ذات دلالة تشدّ أزر الارادة (إرادة المؤرخ هي إرادة حلم)، تمنحه الاستمرار بمعنى من المعاني: إن جملاً تامة من الأحلام المتفاوتة النشاط تتصل بصنع التاريخ^(*).

وثمة أحلام أخرى معقّدة: انها الأحلام التالية للعمل: أحلام بالفارق بين

(*) قد يستلزم البحث ثلاث، أو خمس سنوات، وتستلزم الاطروحة التقليدية عشر سنوات أو أكثر: وبذلك نرى طول تراكم الأحلام المتكررة. والحلم يلطّف الارتياح في الذات، ويصون اللذة، ويتيح الافلات من برائن الريبة، و(استرداد الصحة)، وهو يجلب نوعاً من سيطرة على الزمان (إن زمان الحلم زمن طيّع، خاضع) ، وللحلم ديمومته الخاصة (الحلم يغذي الحلم).

ماصُنع وما كان يُحلم بصنعه، بما كان يجب صنعه، تعمق، إقدام، الأمر الذي يؤدي أحياناً إلى أحلام - برامج، ولكن هذه الاحلام هي أحياناً حلوة - مرة. ونحن نكتشف بالأحلام النقائص، وانصاف الكذب، والصمت والدروب المسدودة، وما كُتب، وبكلمة واحدة، تفاهة ماصُنع، عجزه، وهذه الاحلام تنقلب على الذات، ويدرك المرء أنه قاصر عن قول ما حلم بقوله، عن فعل ما حلم بفعله: وهذه الاحلام المؤسفة توضح سبب كثير من حالات النكوص اللامعترف به، كثير من التوقفات، من خور العزيمة التي لم يلمحها أحد - إن احلام الاخفاق («لو كان لدي الوقت، الجراة» «لو كنت ذكياً...») هي امور مألوفة لدى المؤرخ، وإن البحث ليقترض بالضرورة قسطاً من خيبة الأمل، من التملص (فاللذة لا يمكن أن تدوم)، والحلم يصبح هنا هدأماً، يلغم ارادة المؤرخ. ولا يمكن إغفال أحلام المؤرخ المتصلة بموت العمل، وبمعرفة الشخصي، أحلام قاهرة، مضطهدة، غير معترف بها (ماذا سيؤول اليه أمر ما كتبت؟) وهي تفسر أحياناً التعجل الفريد لمبادرة بعض الأعمال.

إن فاعلية الحلم تميل إلى التضائل مع (السن) و (التجربة)^(*). هناك فقر في الحلم لدى بعض المؤرخين - فقر قد يكون ارادياً - فقر جدير بالتأمل. وإنما تعود اسباب ذلك بلا ريب إلى الاغراق في التخصص، إلى ارادة منهجية مسرفة، إلى رفض افساح المجال للحصة الخاصة بالحساسية التاريخية، إلى نمو الصورية، إلى اختيار قطاعات (فقيرة) بالاحلام، وبحسب الزي الدائع (ولكن المرء قد يحلم بصنع منحنيات أكثر تقدماً وتعقداً). يحكم على الحلم بأنه ينبوع أخطاء، وأنه قليل (المواءمة). (هل يوجد أولاً حتى نرفض الاعتراف به)، الحلم شيء مراقب، لا مُلغى (يساء تقدير تخيل المؤرخ). وإن فرط الحلم في هذا

(*) كما لاحظ (باشلار) BACHELARD: (عندما يكون المرء في سن التخيل لا يعرف أن يقول لماذا وكيف يتخيل. وعندما يعرف أن يقول لماذا فإنه يكف عن التخيل. لذا ينبغي الانسلاخ عن الرشد).

التاريخ المنقّى، المعقّم، لاملح له. ولكن هذا التصور التضاؤلي للتاريخ ينجم عن السن، عن تعب المهنة لدى البعض، وإن قدرة الحلم، والحاجة إلى الحلم تضعف، ويفقد المرء ملكة التوثب، ويهمل أحلام شبابه الطمّاح، ويقع في شرك التجربة - هذا المزيج من الحسابات غير المعترف بها، ومن الاخفاقات (أو انصاف الاخفاقات)، ومن الرفاه الفكري (أو نصف - الكسل)، ومن اليقينيّات المعلنّة أو الاهمالات. إن وظيفة الحلم تحال على النوم (ويصبح الحفاظ على (المجال)، وعلى (السلطة) بمثابة التعقل الرئيسي)، وهذا يفسر بلا ريب احتقار الحلم بوجه عام (التلاميذ يقلّدون الاساتذة): وينجم عن فقدان تربية الحلم أن يفقد المؤرخ في الغالب، لدى بلوغه الخمسين، كل قدرة على الابداع، كل مرونة تخيل، فيتبع الاطلال ذاتها دون كلل.

ومن المعلوم أن لاوجود لابداع تاريخي دون بعض تربية الحلم وحفظ صحته: والمؤرخ - ربما اكثر من سواه - أليف التخيل، يعرف توجيه حلمه، وإرادته، بل وتحسينه، يعرف مضاعفة الاحلام الارتياضية، وتغذيتها بمواد جديدة، بقراءات، بكلمات، بأغراض، بصور، بل وبارقام، يحاول تقمص الأمر، الحياة مع، يعيش في عالم خيالي، يعرف كيف ينزح، كيف ينعطف تجاه هذا الماضي الحسي الذي يخترعه، يراكم احلامه حول موضوع دقيق: في وسعه أن يتدرب على الحلم، ويمنحه الوقت الضروري، وفي مكنته أن يمتح منه لذة خاصة (الحلم السابق، المبدع، يجلب لذة متميزة، ذات شدة قد تفوق لذة الصيد)، ولكن هذه اللذة عرضة للتضاؤل اذا لم يُجد المؤرخ ضبط أحلامه فافسح لها مجال الحرية والطيش الضروريين (لاشيء أكثر خطراً من العادة)، يجب أيضاً أن يجيد المؤرخ الاحاطة، (استغلال) المعرفة الخاصة الصادرة عن الحلم - وهي معرفة متفاوتة من حيث الستر، والتعمية، والجلس، وهي مبعثرة في صور، في احساسات - وهذا مايفترض نوعاً من القدرة على الانتباه الباطني.

5. الحافز الخامس: الحذر

المؤرخ حذر بسائق تجربته بالماضي. إنه يعرف أن لشيء بجامد، وأن كل شيء يتحرك، وأن اللايقيني يسود، وأنه لا يوجد (تقدم)، وأن الناس تحركهم أهواؤهم، وأحقادهم، ونشدانهم المجد: وهذا ما يعطي نوعاً من رؤية حلوة - مرة عن الأشياء، نوعاً من رية كانت تقليداً في المهنة: الناس لا يكادون يؤمنون بالأفكار العظمى، بفلسفة التاريخ. كان (سينوبوس) (*) SEIGNOBOS يقول: لا أهمية لشيء. ولهذه الريبة المعتدلة - وقد أدانتها بأن واحد مدرسة الحوليات والمؤرخون الماركسيون والموراسيون والديمقراطيون المسيحيون (**). بعض الفوائد: انها تحذر من الغواية السياسية، ومن التفسيرات الشمولية ومن الايمان المؤسف بـ «دروس» التاريخ - لقد كان (لوسيان فيفر) يصرح بأن التاريخ لا يعلم شيئاً - إنه يتيح الافلات من أسر التجريدات السياسية (دور الجماهير أو الطلائع المحرك)، من ضغوط الازياء الذائعة - الاقتصاد القياسي، أو البنيوية، أو علم السكان، أو التحليل النفسي أو علم الاجتماع - من عبادة الأرقام (ذات العقابيل الشاذة على المؤرخ في الغالب) وبعيد اليوم اكتشاف ضرورة الانتقائية (***) أو رؤية التاريخ رؤية تعددية... وبعد التفافات طويلة باهظة تنتهي إلى الحذر من «النماذج»، من الاستعارات الممتوحة من «القوانين السوسولوجية»، من المزايم «العلمية» لبعض الباحثين، ونعود إلى علم الحياة، إلى الفريد، إلى الجائز، إلى اللامحدّد إلى تحليل اللعبة السياسية... وهذه المراجعات تفترض نوعاً من الشجاعة - مادامت ضغوط المجتمع قوية: فليس من اليسير إنكار ما كان يُعدّ أساسياً خلال عشرين عاماً، ما كان يحملنا على الاطمئنان، ما كان يمكننا من

(*) وهو يرجع إلى رأي (جوريس) JAURES (لاشيء بمهم)، وكان يثير غضب (بيغي).
 (** انظر: المدراس التاريخية المصدر المذكور ص 33 وما بعد.
 (***) انظر (تحيا الانتقائية) لـ (جان بوفيه) J. BOUVIER سنة 1986 (المدراس التاريخية - المصدر المذكور ص 77).

طرد سوانا. وسنرى في المراجعات القادمة أضاليل وخداعات^(*) فريدة، وسنحتاج الى قدر جيد من الريية - ومن التهكم - حتى لانكون مستغفلين، وحتى نصون صوانا. ان المنظر التاريخي يتبدل بسرعة كبرى، والحذر يود الاستمسك ببعض قواعد سلوك بسيطة: اننا اليوم نقدر تقديراً أفضل الأخطار المتصلة بالافراط المذهبي، ونكتشف بدقة أعظم ثمرات الأسلاف، ونرى فجوات (مذهبهم) والفرضيات والاحكام المبيّنة التي تفسر هذا الاخفاق أو ذاك، ونقيس قياساً أفضل مدى الملل الناجم عن بعض الأعمال - أو مدى لافائدتها... وننتهي بفهم أخطار (تسييس) التاريخ، ونسعى إلى تميز أقل، أو إلى اللاتميز. اننا نبقى في التيار. والحق أن هناك من يأسف على هذه الانتقائية الجديدة، هذه الريية النامية، ولكن هذا (الارتكاس) يحدث بالضرورة بعد بعض انزلاقات 1960 وزهو بعض المريدن. وفي سنة 1985 كان (بروديل) BRAUDEL يعلن متهمكاً، وهو لا يكاد يُخدع: «لاترتابوا. إن ثورات اخرى آتية. وإن تاريخاً جديداً، وقراءة جدية جديدة، ترقبنا، وتهزأ منا سلفاً في الأفق»^(**). ألا إن الأفضل هو أن نعي - قبل المباشرة بالبحث - ضرورة

(*) بل ان ثمة من يخشى حالات من (التقهقر): لقد شاهدنا من جهة أولى ماشمي (تفتيت التاريخ). ومن جهة أخرى، رأينا رجوع الأشكال التقليدية للتاريخ: رجوع (السرد)، رجوع (السياسي)، رجوع (التراجم). وانا اكتفي هنا بقول: إذا وجب قيام انتقادات ذاتية ومراجعات في دنيا المؤرخين حتى تتفتح لأنواع طريفة من الحصب، فإن حالات (الرجوع) الشرعية ينبغي ألا تشبه رجعة مهاجري (الثورة الفرنسية) الذين لم ينسوا شيئاً ولم يتعلموا شيئاً. (إن التاريخ يحتاج إلى طفرات، وليس إلى ارتكاسات. فلكي تُنجز تلك الطفرات الضرورية، وتقاوم الطفرات التي ستكون تقهقرية، ينبغي على المؤرخين التسلح بالجلاء، وباليقظة، وبالشجاعة). (جاك لوكوف J.LEGOFF : التاريخ والذاكرة - كانون الثاني 1988 ص 14 - 15 .

(**) في خطاب استقباله في المجمع الفرنسي عام 1985

هذه التساؤلات المرتابة، هذه التجديدات الدورية: سيكون المرء أكثر حذراً في مشروعه، في نتائجه، وسيزداد حذره من الاختناقات الجمعية، من الازياء المتعاقبة، من الضغوط (المهنية، وسيبحث عن ضمانات إضافية من سعة الاطلاع، وسوف لن يقدم تفسيرات إلا بصورة موقوتة، وسيشير بوضوح إلى الاحتياطات المتخذة^(*)، وإلى الموضوعات المستخدمة على صعيد المناهج، وسيتحاشى الملخصات الخطرة، والتعميمات اللاهثة، وسينظر شزراً إلى عمله، وبكلمة واحدة، سيطبق قواعد الحذر التي عظم نسيانها باسراف، وسيحذر بوجه خاص الحكم الخفيف الذي سيطلقه اللاحقون.

6 - الحافز السادس التواضع

إننا لانكاد نجرؤ إلا بمشقة على النطق بكلمة، لشدة سوء النظر إليها اليوم: ولكنها ضرورية، وتدخل في باب الحذر. ذلك أن على المؤرخ أن يكون واعياً حدود عمله، ونقص طرائقه، وفجوات معلوماته - عليه مبدئياً أن يطرح على نفسه بضعة أسئلة شاقة منذ تساؤله عما يفعل: المجدد الذي آتى به؟ الماذي لا أعرفه ولا أستطيع أن أعرفه^(**)؟ ما الانحرافات التي اجترحتها عن غير عمد؟ ماالفائدة المتوخاة مما فعلت؟ ماالنقد الذي يستطيع خلفي أن يوجهه إلي؟ إنها أسئلة مهمة - ولكن فحص الضمير قد يقود إلي طرح كثير سواها. فبين مايمكن فعله وبين مايفعل أو يكتب بون ضخم: لقد أنسي تعمق أحد المصادر، أهمل النظر من زاوية معينة^(***)، أغفل أحد الآفاق، أستخدم استبيان محدّد باسراف،

(*) نرى سلفاً بعض الرسائل المنشورة مع كتل حواشيتها على نقيض العادات السيئة. لسنوات 1970 - 1980 التي كان الناشر يوجب حذف كل مرجعية وكل حاشية.
 (***) ذاكم سؤال أساسي ومثلاً عندما تُكتب ترجمة حياة تُستثمر مجموعة معلومات، ولكن بالضرورة يُجهل ما لا يدع أثراً، ما هو الأهم في الغالب.
 (***) ينبغي على المؤرخ في كثير من التواريخ (التقنية) أن يعي حدود معرفته، ونقص تكونه وأن يلجأ إلى استشارة تقنيين أو ذوي خبرة: أطباء، أو مهندسين، أو خبراء محاسبة، تحاشياً للخطأ.

أهملت استشارة اختصاصيين في علوم أخرى - أطباء، قضاة، اقتصاديين - وسلكت دروب (مسدودة): المؤرخ يعلم حق العلم أتيان أخطأ، ويسعى في الغالب لاختفاء ذلك ببراعة تقل أو تكثر. وغير خاف أن هذا النوع من الأسئلة يضطر المرء إلى إقرار (نسبية) مايفعل، إلى الشعور ببعض وسواس، وأحياناً يكون الوضع غير مريح: كيف سيحكم عليّ من سيأتي بعدي؟ ماذا سيرى مما لم أر؟ ماذا سيحتفظ به من عملي؟ اننا نلمس لمس اليد خطر البلى، ونعي هذا الانعكاس المحتوم، بل ومن البديهي طرح سؤالين متلازمين: كيف سيرى عملي شاب في الثلاثين من العمر؟ وكيف سيراه الناس بعد ثلاثين عاماً؟ إن لهذا القلق فائدته الثابتة: المرء يميل على نحو أقصى إلى الغلو في تقدير قيمة عمله، وطرائقه، والإيمان بأنه بالضرورة (مؤرخ جيد) وأن عليه مراعاة بعض قواعد الحذر الوقائي، بل وأن يُلطف مذهبه أحياناً، ويعيّر وجهة نظره أو ممارسته، بل انه يتدرب على التواضع. (إذا حسب انسان انه يعرف شيئاً، فإنه لايزال غير عارف بطريقة معرفته^(*)). وإذا ماتفحص المرء بأمانة مايفعل كان في الغالب ضعيف الثقة بنفسه، وشعر باللاطمأنينة، باللائقة: ولكن المؤرخ الذي يبدو في الغالب رهيباً في أحكامه على الآخرين، ينسى طوعاً أن يحكم على نفسه بنفسه.

إننا نرى أتيان قادننا البحث: الى سبر الحياة الداخلية للمؤرخ. كان (آلان بيزانسون) A. BESANÇON يقول: «لابحث دون أن يكون بحثاً عن الذات، وهو الى درجة ماستبطان». «ولكن هذا التقمص يولد القلق ويُحارب بعنف^(**)». إن المؤرخ يحيا تناقضاته على نحو مقبول الى حد كبير أو صغير: إنه بأن واحد طموح وحذر، وحالم، مقدم وكسول، انه يحب اللذة ولكن عليه ابداء بعض التواضع، إنه عاشق يترتب عليه تخفيف اهوائه.. بيد انه ليس إنساناً عملياً، انه لا يضطلع بمجازفات حقيقية، إنه يلعب لعبة واثق.

(*) بولس الرسول، (PAUL.ST) : الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس

(**) التاريخ وتجربة الأنا 1968 ص66

الفصل السادس

المخاطر

المؤرخ لا يتجشم المخاطر إلا قليلاً، ولا يكاد يحب المغامرة (كان فاليري يقول ساخراً: «ليست المقصلة، لحسن الحظ، بيد المؤرخين»). ولكنه يجازف بصنع تاريخ سيء، أو بعبارة أدق، بصنع أعمال تعيش قليلاً وسرعان ما يغلفها النسيان. إن كتابة التاريخ ليست بالأمر البرئ. وهي في الغالب تذخر بالأفكار الميئة. ولذا غدا من المناسب عرض هذه الاخطار بايجاز.

1 - الاختيارات السيئة

ان الاختيار الأولي لقطاع البحث اختيار حاسم: فثمة كثير جداً من الاختيارات اللايقينية، الضعيفة التفكير، حيث يندفع الباحثون في لحظة واحدة، يرفد الزي الذائع، وراء موضوعات معينة، ويزدرون التواريخ (التقنية) التي تبدو بالغة الصعوبة وتستلزم جهوداً مسرفة، فيختار (اختصاصاً) يتكشف لدى الاستعمال بانه ضيق باسراف. إن الاتجاهات السيئة موجودة. وقد كان (بيير نورا)^(*) P. NORA يذكر متهكماً أن الاساتذة من امثال (لوكوف) LE GOFF و(دوبي) DUBY و (اكيلهون) AGUILHON و (رينه ريمون) R.REMOND و (ميشيل برو) MICHELLE PERROT

(*) محاولات تاريخ ذاتي 1987 ص 352 - 353

و(بيرشونو) R. CHAUNU قد رفضوا الموضوعات التي فرضت عليهم، أو انهم بدلوا تبديلاً عميقاً، ولو كره (المشرفون على رسائلهم): ولكن ينبغي للافلات من (الموضوع السيء) توافر شجاعة وجدارة شخصية (الحق أنه يجب «قتل الأب» ذات يوم). والخطر انما يمثل في مباشرة أعمال بحسب فرضيات عتيقة ستبدو بعد مضي عشر أو خمس عشرة سنة بالية، أو أنه يمثل في إتباع فرضيات أو طرائق مستوردة من علوم أخرى - ومثلاً من علم الاجتماع - فلا تلبث عاجلاً أو آجلاً أن تبدو مهجورة أو مرفوضة. إن ديمومة عمل من الأعمال، وقيمتها، ونجاحه، وسلطته لاصلة لها بكمية المحفوظات المدروسة، وكتلة (العمل المبذول) والأفضل أن يُعرف ذلك سلفاً. كل شيء يتبع:

1 - الحدس الأولي، القدرة على اصطياد الموضوع المهم - أو الذي سيصبح مهماً بعد عشر سنوات.

2 - مدى التفكير فيما سيكون عليه الاختصاص بعد (س) سنة: يجب الاضطلاع بجهد شخصي للتخمين، والحلم بما سيكون ربما، بفهم آلية المنافسة بين المؤرخين.

3 - القدرة على التجديد، على ابراز اشياء جديدة (أو جديدة في الظاهر)، وهذا مايفترض توافر الحظ والتخيل والشجاعة.

ومن الجلي أن هذه القدرات نادرة: بعض الباحثين يفضلون (الدروب الممهّدة)، الموضوعات المسماة (سهلة) التي تمنح بعض (الهدوء) ويتهيئون لخيبات أمل حادة. والآخرون، على العكس، يحاولون معالجة موضوعات شخصية تتصل بالتزاماتهم السياسية أو الدينية^(*). وهم، اذا لم يتخذوا حذرهم، ضحية تغيرات (حساسيات تاريخية) (لقد تعرضت أعمال التاريخ الديني منذ عشرين عاماً لارتكاس الفاتيكان الثاني، اذ الأزياء تلي الأرياء). وآخرون

(*) على هذا النحو تذكر (ميشيل برو) (محاولات تاريخ - ذاتي، المصدر المذكور ص 286) بأن أهواءها السياسية - المتصلة بحرب الجزائر، برفاق الدرب في الحزب الشيوعي، بنضاليتها اليسارية المسيحية - كانت أصل اختيارها اطروحتها: «إن قراري بدراسة التاريخ العمالي مستقل من هذه المعطيات التي تفسر مسيرته - إن إتخاذ ←

يخضعون لتأثير حصري هو تأثير (الاستاذ المشرف) فلا يحاولون التملص ويتبعون بالضرورة حظوظه في البقاء. الا إن الاختيار الجيد ليس بالأمر السهل: فاللاعادلة في جميع الاحوال أمر شائع. كان (أناتول فرانس) يلاحظ: «أن للجيل اللاحق كل احتمالات الضلال بدل أن يكون معصوماً. فهو جيل جاهل وغير مكترث...». وان آراء الجيل اللاحق (...) تتبع المصادفات أكثر ماتتبع (...). وان الاجيال الجديدة ستكرر إعادة النظر في إحكامها المرة تلو المرة» لذا وجب الإمعان قبل الانخراط في هذا العلم أو ذاك (أو في الفرع - العلمي) واجتناب غواية التواريخ المعتبرة (سهلة)، والامتناع عن المضني (حيث يمضي الناس كافة): عندما يكون المرء في شبابه الأول ينبغي عليه أن يعرف كيف (يبرز إفتراقه عن سواه) وأن يصمد - عند الاقتضاء في وجه (المشرفين) الذين ينون محاكمتهم أحياناً على فرضيات بالية أو ان يكونوا لامباليين. وإنما في حوالي الخامسة والعشرين أو الثلاثين تتحدد المهنة سلفاً بوجه التقريب وينهض المرء باجمل كشوفه. فهناك يفصل في كل شيء: يحكي (رينه ريمون) بمكر أنه كاد أن يغدو مؤرخ الاضرابات: «ماقوام توجه حياة ودراسة؟ إن تاريخ إضراب كاد أن يجعلني متخصصاً بالتاريخ الاجتماعي، وكنت قد أصبح شهيراً بصفتي مؤرخاً اجتماعياً، وقد كنت في (الحركة الاجتماعية) وكنت أشارك في (مركز تاريخ النقابية)، ولو ان وسائل الإعلام لجأت إليّ بين الفينة والفينة لكان ذلك من أجل ان اعلق على الخصومات العمالية، أو ان افسر تجديدات التشريع الاجتماعي...».

2 - التاريخ الايديولوجي

لقد خلط الباحثون طوعاً بين سنتي 1930 - 1940 التاريخ بالايديولوجيا، ومزجوا العمل السياسي بالبحث التاريخي، وسعوا إلى إقامة مذاهب تاريخية

← الطبقة العمالية موضوع بحثي بدل انخراطي الجسدي أو التزامي السياسي مباشرة كان يبدو لي بمثابة سبيل للحاق بركبه، بل لخدمته من جراء اسهامي بمعرفتي وعرفاني. ولقد كان ذلك بالطبع وهماً إلى حد كبير».

متصلة بنظريات سياسية، بانشطة تبشيرية: وهذا التاريخ الممرس بالدرجة الاولى - (إننا ندع جانباً التاريخ المدرسي الذي ظل هامشياً على الدوام) - قد أحدث خسائر كبيرة وفن كثيراً من المؤرخين الشباب، ولم يكن تأثير أمثال (ارنست لابروس) E. LABROUSSE أو (بير فيلا) P. VILAR أو (جان بوفيه) موفقاً جداً على الدوام. ولعل الباحثين اسهبوا في الحديث عن الدخول العقاري أو عن مساوئ الرأسمالية أو عن الحركات الاجتماعية وقد حال المذهب دون التجديد: ولا يمكن رصد ذلك إلا بعد بضعة سنين ... لقد أفسدت الايديولوجيا صورة المؤرخ: فهذا التصور للالتزام، للنضالية، وهو غالباً جد ضيق، كان يمنع الكلام على المصرف دون ذكر (ماركس) MARX واضفاء صبغة (السمة البائسة) على التاريخ العمالي، وكان يقود الى فقدان الاستقلال الذاتي (كان المرء ينتمي إلى فئة، وينشد اعترافها به، ويتبع «الخط»). وقد كان الانتاج التاريخي (مشوّهاً) إلى حد كبير أو صغير، وكان الباحث في الغالب يحرف الفرضيات، ويستعمل كلمات عائمة، خطيرة - برجوازي، رأسمالي عامل، كادح - وقد أدّى ذلك إلى أن كان جهل الحياة الحقيقية(*) كبيراً في بعض الأحيان (كان الباحث يعرف كل شيء عن الاضرابات والتمرد ولكنه كان يجهل التنظيم البلدي والشرطة والادارة). وقد ساعد هذا التاريخ المموّه، المشوّه - والمشوّه(**) - في الغالب إلى إعادة النظر، وإعادة التصنيف: سيكون الباحث، عاجلاً أو آجلاً، مرغماً على إجراء دراسات شمولية (لقد رأينا ذلك

(*) كان المرء يجهل شروط السياسة: مثال ذلك هذه الاطروحة عن رئيس مجلس وزراء كانت تنم عن جهل كبير بقواعد اللعبة السياسية. اما (سينيوبوس) فقد كان يفيد على الأقل من كونه ابن نائب.

(**) إن تاريخاً مثل تاريخ فرنسا في عهد حكومة (فيشي) قد حرف كذلك بدافع ايديولوجية تقود إلى جهل - باسم أية مبادئ؟ - الواقع اليومي وضغوط الإدارة في تلك الحقبة. ينبغي توافر قدر كبير من المرونة الذهنية حتى يُكتب تاريخ (فيشي) بضمير دون الوقوع في براثن المقالات الجاهزة.

بمناسبة العيد المئوي الثاني لـ 1789 حيث أوضح الباحثون تماماً فجوات التاريخ العزيز على (البرت سوبول) A. SOBOUL على طرح اسئلة محرجة: ماذا رأى هذا المؤرخ وماذا أهمل؟ ما الذي تغاضى طوعاً عن رؤيته؟ ماهي الفرضيات الايديولوجية الدينية، السياسية الجائمة في قاع هذا الكتاب؟ ماالذي كان بوسعه أن يصنع، أن يكتب لو لم يكن ملتزماً بهذا الأمر أو ذاك؟ أجل، إن أبرع الباحثين كان يعتصم بتواريخ (حيادية) - علم الاحصاء، علم السكان، «العقليات» - للافلات من شرك الايديولوجيات، وانما المبادئ، والتلاميذ الحمقى، هما في الغالب سبب زيف اللعبة واجتراح مبالغات الحماسة.

إن المشكلة هي مشكلة السبيل للتملص من القوقعة الايديولوجية المذكورة: الأمر عسير جداً، وإن اقوال (فيليب آريس)^(*) PHILIPPE ARIES تبين بوضوح أنه ظل الى النهاية شديد التعلق ببعض أشكال التاريخ الموراسي، وأنه كان لايزال يؤمن بأن التاريخ يمكن أن يعلم شيئاً. وكيف يمكن التملص من مفردات تاريخ «ايديولوجي، ومنعكساته وأعرافه بعد مرور عشرين عاماً أو ثلاثين؟ لقد شاهدنا عدداً من «الاهتداءات» بين ستي 1975 - 1980 ولكن المحنة كانت حرجة باسراف بالنسبة إلى بعض الناس، ولا نبرح نجد لدى بعضهم الآخر إيماناً بصلة وثيقة بين العمل السياسي والتاريخ، بين ذاك العمل وتعاليم التاريخ، بينه وبين خصائص الكيان السياسي^(**) (لقد أتاح العيد المئوي الثاني لـ 1789 تدريبات رائعة بهذا المعنى). ومن الجائز أن نحلم بفصل الالتزام السياسي عن العمل التاريخي (لقد كان ذلك جائزاً لدى امثال لوسيان فيفر^(***))، كالفصل بين الحياة العامة والحياة الخاصة: ولكن ذلك قد يكون

(*) في: مؤرخ يوم الأحد (1980)

(**) إن فكرة قدرة التاريخ على أن يعلم شيئاً فكرة شديدة الرسوخ لدى الجامعيين سواء كانوا اتباع التقليد الماركسي أو الموراسي أو الديمقراطية المسيحي: إنهم بحاجة للإيمان بفائدته الاجتماعية.

(***) لم يحذو أتابع (لوسيان فيفر) حذوه في رفض الجانب السياسي على الرغم مما يبدو.

وهماً فالمؤرخ يؤمن على الدوام - غريزياً أو بسذاجة - بأن له (دوراً) ينهض به. ولكن من الواجب وعي هذا الخلط:

- إن كثيراً من الأعمال واهنة من جراء ذلك تماماً، وهي محل حبطة، ومراجعة: فلسنا واثقين بأن المؤرخ قد قرأ الوثائق قراءة جيدة وأمينه: كان دوق (بروكلي) DE BROGLIE يقول : (إن جميع النصوص التي يذكرها السيد (تين) TAINE تحملني على التفكير في تلك التي لا يذكرها). فالمؤرخ بغريزته، يميل إلى تمييز وثيقة ما، قراءة ما: وهذا ما يمكن أن يحرف أعماله بشدة.

- لقد أهملت حقول تامة من مجالات البحث بسبب حوافز ايدولوجية. لنذكر مثلاً دالاً: يتحدث (ليون بولياكوف) L. POLIAKOV في مذكراته(*) عن خيبة أمله عندما وجد نفسه بعد مناقشة رسالته للدكتوراة وقد افهمه (بروديل) بأنه لن ينل أي تقدم (مالم يُعنى باللامسامية). وإن معرفتنا بالمانية في القرنين التاسع عشر والعشرين محدّدة جداً: كانت (آني كريكل)(**) ANNIE KRIEGLER توضح قائلة: (ليس لدينا أي اختصاص كبير بتاريخ المانية النازية). وسيكون من اليسير أن نلاحظ فجوات البحث في قطاع تلو الآخر: مثال ذلك: عبثاً أُعيد الاعتبار للتاريخ السياسي(**). ولكن الباحثين نسوا كل شيء يتصل بالادارة، والبيروقراطية، وإن مصيرها مع ذلك كان مرتبطاً ارتباطاً شديداً بالسياسة****، وانصب الاهتمام على الاضرابات،

(**) نُزّل الموسيقين. 1981.

(**) تصنيف (آني كريكل) بأن مسؤولية ذلك تعود على (مدرسة الحوليات) التي نجم عن رفضها الاهتمام بالمعاصر، بالسياسي، وبالحدث، تحويل أنظار المؤرخين الفرنسيين منذ 1946 عن أمور جادة من طراز معسكرات الحشد (مسؤولية المؤرخين - الفيجارو وعدد 18 ايار 1990 ص2) وكذلك أمكنت ملاحظة غياب للمؤرخين شبه تام أثناء حرب الخليج (1990 - 1991): لقد نسوا إعداد مؤرخين (للشرق الأدنى) المعاصر.

(***) - من أجل تاريخ سياسي - (لوسوي 1998).

(****) لقد فضح (بيير روزانفالون) P.ROSANVALLON هذا الوضع (الدولة في فرنسا - لوسوي 1990).

ولكنهم أهملوا (رقابة العمل)... لقد أبعدت الايديولوجيا في الغالب المؤرخين الشباب عن قطاعات بحث بأسرها لأن النضالية لم تجد فيها بغيتها^(*). (إن جيل المؤرخين الشباب ينزع إلى تقديم وجهات النظر الوحيدة (لمدرسة الحوليات). ولكن تدارك التخلف يستلزم وقتاً. وهو يستلزم وقتاً وتسديداً من أجل العمل على تفصيل دراسات معمقة باكثر من تسوية العلاقات الفرنسية - الفرنسية على عجل» (أنى كريكل)^(**). والحق أن الشباب - ويكفي الاصغاء الى خريجي معاهد المعلمين اليوم - لا يكادون يتعرضون للسقوط في شرك هذه الايديولوجيات: وعندهم أن (مؤسسي الخطاب) بروديل، فوكول FOUCAULT قد ألقى بهم سلفاً في (سلة مهملات التاريخ)، كما كان يقال في الماضي، وكم يخالفون بوضوح، في هذه النقطة، جيل الخمس وثلاثين أو الاربعين، وعندما يعالجون موضوعات سياسية محضة فإنهم يزدرون النضالية، ويعربون عن أعظم الحذر: ان تسخير الذات لخدمة الآخرين مفهوم بالي عن التاريخ.

3 - التاريخ البلاغي

الصف البلاغي من أعظم صنوف الشرك خطراً التي يتعرض لها المؤرخ: أجل، إن المحاولة في موضوع، الخطاب المتصل بالانشاء شبه الفلسفي، أمور فائنة حقاً، ولكن لامناص من تفريق الأنواع. فالتاريخ البلاغي ليس تاريخاً، وإن إرادة الإقناع ليست سوى شكل من أشكال التغيير بالعقول. المرء يضد حججه، يدفع بخطابات متعمقة، ينسى قراءة النصوص، يمرر الكرام بالأمر المهم، يتحدث من علي، مستسلماً لمتعة الأبنية الخيالية، والماذج النظرية، يعيد باعتساف خلق ماضٍ مطواع - ولكن هذه الطرائق المنحرفة، وهذه التفاسير

(*) إن إعادة اعتبار (لوبلاي) LE PLAY الى اليسار أمر حديث تماماً ولكن الحق أنهم لم يقرأوا (لوبلاي) بل كانوا يعيشون على أفكار سياسية مسبقة: موقف تقليدي.

(**) الفيغارو 18 ايار 1990 المقالة المذكورة.

المبسطة، وهذه اليقينيات الآمرة ليست سوى ألعاب فكرية غير ذات أساس، لا تلبث أن تنهافت. إن البلاغة ليست بناءً. إنها ليست سوى أداة خداع: المرء يلعب بالوقائع، بالكلمات، بالناذج، بالملايسات، ويقع في براثن ذلك التاريخ المجرد الذي (يفسر كل شيء)، ولكن، كما تقول (جان سيوك بويديسو)^(*) JEANNE SIWEK POUYDESSEAU - « في هذه النظرات المحددة سلفاً إلى حد كبير أو صغير (...) يُستخدم الحادث التاريخي كأكسيد بسيط دون إمكان إقامته بكل يقين في سياقه. وتبقى الطريقة الانتقادية، بكل مالها من ضرورة قاهرة، أفضل ضامن في وجه نماذج تدّعي أنها علمية، حيث يكفّ الواقع عن أن يكون أساس التفكير، بل يقتصر على أن يكون توضيحاً له. إن الخطر بديهي أمام تعقد الواقع، خطر امتناع الوصول إلى تفسير بسيط ونهائي.

هذه المحاولات الأسرة لانهيش في الغالب إلا قليلاً: فالمرء لشدة حرصه على تفسير كل شيء يفقد كل معنى الأمور المعقدة، اللامحددة، ويحيا على أفكار جاهزة، الشيء الأكثر خطراً في التاريخ - إنه يحرف الماضي بنية سيئة تامة الطيش، ويقدم يقينيات حيثما تكون المادة موضع ريب، ويقوم علاقات سببية على أساس أوهى الظواهر: المهم هو إقناع من يتفضل بالاستسلام للإقناع. بيد أن التعليقات العميقة هي في أغلب الأحيان تعليقات سياسية، يسارية أو يمينية. (إن الدراسات التي تناولت سنوات 1789 - 1794 بين سنتي 1988 - 1989 ، والتي أفلتت من إرادة التقريظ الملمع إليها، دراسات قليلة، حتى ولو كانت بارعة الترميز: لقد كان من العسير، فيما يبدو، كتابة التاريخ بألفاظ حقيقية، دونما إمداده أو تشذيب)، وهذا الحرص البلاغي أشد ظهوراً في الأعمال المسماة تركييبية الكتب التعليمية. كان مارك بلوخ^(*) يقول: «إنها ينبوع تصلب»:

(*) نقاية الموظفين حتى الحرب الباردة - 1989 التصدير ص 8

(*) «التعليم والكتب التعليمية أدوات تصلب متميزة» (امتداد .. ص 124).

إن الكتاب التعليمي يقهر الفكر، ويشوّه الواقع. وكان (لوسيان فيفر) يصرّح سنة 1955: (ليس لي من الأمر شيء، الكتاب التعليمي يُملّني. إنه يعرف كل شيء. يقول كل شيء. ينفذ كل شيء لاناظفة مفتوحة على الاليلسين المزدهر. لاكّزم بري متعلقاً على الجدران وقادراً على جعلك تحمل. واحد، اثنان، ثلاثة. واحد، اثنان، ثلاثة: شيء ما جاف، محدّد، ناصع^(*)). ومن الواضح أن التاريخ البلاغي يؤدي إلى نوع من الشيوع العامي الذي ينبغي عدم الخروج منه، عدم الافات من «طروحات» (البرت سوبول) أو (فرانسوا فوره) F. FORET. : وهذا أمر بالغ الخطورة. على المؤرخ، من حيث مزاجه، أن يكون متمرداً يحذر الإيمان بما هو جاهز، بما هو مُعَدّ للتفكير تاريخياً، لما يبعث، كما يقول (بيغي) PEGUY، صنوف (الطمأنينة، واليقين، والسكينة)^(**): الأمر القريب من السخرية.

4. التشبيط

إننا لانريد الكلام على التشبيط الناجم عن صعوبة المهمة - والغالب أن يكون المرء قد أساء حساب جهده، وأساء تقدير الواجبات اللازمة، أساء فهم المناهج - بل عن التشبيط المتصل بالسن والذي يطالعا في كل مهنة. المؤرخ انسان يشيخ، وهو يشيخ على نحو سيء في الغالب. وإنه ليسيء قبول خطر الشيخوخة، يرفض فكرة شيخوخة الفرضيات، ويعمل جهد المستطاع على التحسين والرتق. ثلاثون، اربعون سنة عمل: هذا وقت طويل بالنسبة الى مهنة شاقة، جاحدة. والشيخوخة تصيب:

- 1 - طريقة صنع التاريخ وجودة الانتاج
- 2 - فرضيات البحث (ثمة تهافت سريع يصيب الفرضيات الايديولوجية).
- 3 - الإرادة ذاتها (الطماع يتضاءل، ينكفي المرء على أعمال تافهة، يحيا

(*) حوليات ESC 1955 ص 580.

(**) «حاشية مواكبة عن السيد ديكرات والفلسفة الديكارتية».

على رأسماله). أجل، ينبغي الأخذ بعين الاعتبار الاهتراء الناشئ عن المهنة، وخفوت الفضول على مرّ الأيام، والمسؤوليات، والعزلة(*)، وكره المهنة، والزلاء، والتلاميذ، والمرء يرى في كل مكان تهديدات، أعداءاً (س لا يقتبس مني، إذن هو حاقّد علي)، يشعر بالالارتياح الى الشباب، ينقطع ميله الى إثارة الخصومات، يستسلم.

ومن البيّن أن تعب المهنة الملّح إليه مصحوب في الغالب بنوع من أزمة شك لا يكاد الباحثون يتحدثون عنها إلا لماماً**، ولكنها توضح إيضاحاً أفضل كيان المؤرخ. إن المرء ليشرع، كما في المهن كافة، وعندما يبلغ سنّاً معينة، وبعد (س) من العمل المهني، يشعر ببعض قرف من الأشياء، بنوع سأم. اذ ذاك تنقض على المؤرخ اسئلة وضروب قلق واخزة وموسوسة حول ذاته: ماذا فعل ولماذا؟ أي دور نهض به؟ ما فائدة كل هذه الجهود عن أشياء ميته، خارج الحياة؟ ألم يخدعه وهم حقير من الأوهام؟ وهذه الشكوك، والخيالات، والوساوس تفسر خلال برهة سعادته الهادئة بوصفه مؤرخاً: إنها نوع من أزمة ثقة، هي بلا ريب عابرة، شك في ذاته يزعزع أركان (يقين) عشرين أو ثلاثين سنة: إنه يكفّ عن تقدير ما كتب، أو مافعل، ويشعر بانطباع انه (انتهى)، ويفقد شجاعته، ويستشف شعور الإخفاق، ويستسلم لمتع تخيل الشك. إنها فترة صعبة تتفاوت بلا ريب تبع الأمزجة (الارتياح في الذات قد لا يزيد عند البعض على المسّ مساً رفيقاً)، ولكنه في الغالب يعطف طريقة المؤرخ، أسلوبه، عمله. والمرء لا يكاد يعترف في الغالب بهذه التوترات، والشكوك، بل يموّهما في إهاب صعب

(*) ان المؤرخ يظل وحيداً، ويظل عمله وحيداً، ولو كان يصطاد مع الجماعة. وسيخلق «التلاميذ الجدد» عاجلاً أو آجلاً، ويتكرون «للمعلم».

(**) إننا نعتقد أن من الأفضل الكلام عليها لأن هذا النوع من الأزمة يُشكّل جزءاً من «المهنة»: إن فكرة أن المرء لا يتغير من حيث تصوراتهِ للتاريخ، ومناهجهِ، وتصرفهِ، فكرة سدى في التاريخ المعاصر. ومن الجائز الاضطلاع بالتحليلات ذاتها في دنيا الطبيب أو المحامي أو الإداري.

أسرية أو مهنية. وفي حال الضيق والمرارة والسأم هذه، يطالعا خليط معقد غير مستقر من (التعب) والوساوس والريب والقلق بازاء مستقبله (كان هبرار HEBRARD مدير الأزمنة TEMPS يقول: ليس لديه سوى العمر) الذي يفصلة عن الموت)، ومن تضائل اللذة، واللارضى عن الخطاب التاريخي، والخوف المكتوم من الشباب، وازعاجات المهنة... أجل، إنها إحساسات عابرة، وإدراكات مبعثرة، غامضة، لحالات نفسية غير ثابتة، والمرء لا يكاد يحب الإعراف بضعفها (وهو يخشى خشية وسواس أن يزيدا الاعتراف قوة). ومن النادر التساؤل بصورة جلية وتأملية عما سيفعل - بوصفه مؤرخاً - في السنوات العشر أو العشرين القادمة، إذ ليس لديه مشروع محدد، بل كثير من المشروعات - الدرائع، كثير من الأفكار التي يعرف حق المعرفة أن ليس في مكنته إنجازها (إنه لا يكاد يتوهم عدد السنين الطيبة التي ستبقى له)، وهو لا يجهل أن لم يبق لديه، ولن يبق، إلا وسائل محدّدة في الزمان (السنوات تمر سريعاً جداً في هذه السن)، وهو يعمل (كالآخرين)، أي انه يبدّر كثيراً من الوقت، ومن العلم، في أمور صغيرة، وانه يستسلم (للاستغلال)، ويرضخ لمصادفات (الطلب) ... وغير خاف أن هذا التبعثر وهذا اليسر، قد يكونان خطرين، ويزيدان الإحساس بالفراغ أو بالملل. ولا ريب في انه يدرك، في بعض اللحظات فعله، ويتخيل أعمالاً لمدى طويل - أعمالاً تقاوم بلى الزمان - تبدو له ضرورية، ولكنه لم يبق محتفظاً بتذوقها، بارادة صنعها، وإن طاقته التنبؤية تتضاءل، ويخشى الإخفاق، وفقدان الوقت (لم يبق أمامي وقت كافٍ)، فيحذر حدوسه (اسراف في محاكماته) ولا سيما يفقد شجاعته (ان هذه الأعمال الكبيرة تستلزم تضحيات كثيرة بالحياة الشخصية، والمرء يغدو أنانياً، يحسب ثمن جهده، ويراعي وضعه...): بل هناك نوع من الحذر، من الأزمة العابرة غالباً، ولكنها تثير أحياناً، بصورة مفارقة - وعلى نحو مباشر - سلوكاً غير معقول ابداً (لم يبق المرء شديد الانتقاد لما يكتب).

ومن شأن وعي هذه الحالة من الضعف والتعب أن يزيد شعور اللائقين: فكلما توغل المؤرخ في ذاته الباطنية وعظم بلوغه المناطق الغامضة زاد بُعده عن

الطمأنينة اليومية وعن عادات الفكر الأليفة: ليس من السهل بتر ما يعرف المرء عن نفسه، أو بالحري ما يحسب انه يعرف عن ذاته بوصفه مؤرخاً، عن حدوده وقدراته. ان المؤرخ الذي يتحلى بشجاعة فهم، والذي هو ارادة بالدرجة الاولى، يكتشف فجأة أن هذه العزيمة قد لاتكون سوى خداع، أو أمانة ضعف، بل الأسوأ انها علامة تفاهة: لقد بذل في عمله كثيراً - ولكنه كذلك ضحى كثيراً، ووضع حداً لأمانيه، ولم يفكر تفكيراً كافياً بما كان يفعل - إن خيراً أو شراً - بوصفه مؤرخاً. لقد كتب كثيراً، ولم يأل جهداً - ولكن ماذا سيبقى بعد سن سنة من هذه الأعمال؟ كم ضحى بجل حياته، عشرين، خمس وعشرين سنة ثمينة؟ يطرح على نفسه أسئلة واخزة، (ممتنع حلها) بطبعها: هل كان ذلك هو التاريخ الجيد، المتين، (الموثوق)؟ أترى تلك الأعمال فاقدة القيمة سلفاً؟ ألم أك فريسة أوهام؟ ماذا نسيث أن أصنع من أمر «مهم»؟ إن هذه الأسئلة تغدو ملحة أحياناً، ثقيلة، قاهرة. لا يبقى شيء (يقينياً). المرء يلمح صدوع المذهب الذي عاش باعتناقه، يرتاب في يقينيات غيره الواهية، يعي نقاط ضعفه الخاص، يشعر مقدماً بإخفاقه الأخير، يكتشف الملل فيما فعل، ملل منتشر، رهيب، وقد أصبح معتاداً. إنه يدرك سدى بعض العادات الفكرية، بعض الشعائر أو بعض الطرز الخاصة بمهنة المؤرخ، إنه يصبح بصيراً: مانفع هذه الكتلة الضخمة من الجهود الذكية، من هدر المواهب، من الدهاء، من الارادة؟ سعداء هم الذين يتحلون بإيمان السذج ... الريب يطغى على كل شيء: إنه قصر من ورق ينهار، والمرء يعي الفراغ غاية الوعي، يعي غياب التفكير، واللاتجربة بالحياة، والتبجح، والخفة الخفية وراء هذا العمل أو ذاك، وسمة التفاهة والضيق والابتذال التي تسم ذاك العمل ... وغير خافٍ عن المؤرخ الذي تعتوره هذه الشكوك أن هامش الحركة ضئيل: إنه يعلم أنه لن يستطيع مبادرة شيء ضخم، وأنه سجين انتاجه، وسنه، ورحيله، وأنه مردود سلفاً، مرفوض سلفاً. إنه لا يقدر على الاستئناف، فالإخفاق ماثل فعلاً: والمرء يتعرض بشدة للتشنج على مافعل، للمضي على السنن ذاته، للتجمد، وثمة شيء مؤلم في هذا الدفاع عن المبادئ التي آمن بها (والتي قد يكون كفّ عن الإيمان بها)، إنه يبرهن على أنه لم يبق

ذا ارادة الوثوب من جديد أو شجاعة ذلك، وانه اهمل (صدر الدكان).. إنه يسي حبيس ماضيه - ذاك المزيج من العادات الرتيبة، واللذات، والنجاحات، والمصالحات، والخيبات، وأنصاف - الاخفاقات - وهو يعرف عثراته كلها، وجميع تراجعاته العلنية وغير العلنية: وهو مرغم على قبول هذا الماضي، الأمر الذي لا يخلو من مرارة، لأن وعود الشباب لما تُصن دوماً، أليس كذلك، ولما يستطيع أن يحقق كل ما يريد.

ان هذا الأمر لا يطاق لدى بعضهم، وإن أحدهم ليعمد إلى إعادة تأليف هذا الماضي وتنظيمه، والرقي بمجرد طرائق العمل إلى رتبة المبادئ، وإدانه كل ما يخالفها، واصطناع مذهب دوماً أساس، وإقرار تحريم، ويغدو المرء لامتسامحاً، لاعادلاً: الخيالي يطفئ على كل شيء، ويذود المرء باستماتة عن نظريات ومذاهب بالية، وينقلب من بعد تواضع إلى متكبر، إلى متعثر بارع.

وثمة آخرون يقلبون، على نحو أرهف، ربيبتهم إلى مذهب، ويفيدون من ذلك لينقدوا نقداً صادقا أعمال الآخرين، أو يبرهنوا على عثراتهم، ويؤكدوا من على أنها أعمال (بالية): وعندئذ يصبح النقد المذهبي مهنة تجلب لدى ممارستها بذكاء متعة رهيقة وتهب بعض الثقة...

وهناك آخرون يحرفون طرائق عملهم واسلوبهم من حيث أنهم مؤرخون:

انهم تركوا تماماً الاستمرار في الأهتمام بالاشياء ذاتها، وافسحوا مجالاً أوسع لتجربتهم بالحياة، لوزن شخصياتهم، لتأثير أهوائهم، وهم يهملون قسطاً من وثوقيتهم السابقة. وتلكم تغيرات معقدة، مكتومة، شبه سرية: إنهم يقلعون عن الاستدلال بالطريقة ذاتها قبل وبعد. إنهم يتغيرون. ولكنهم لا يعترفون بذلك.

كل مؤرخ يرتكس على هذه (الازمة) بحسب مزاجه: بعضهم يصبح مذهبياً ويستمر في حفر دربه على شاكلته. وآخرون يودون تعويض وسواسهم بالتصدي سريعاً لأعمال كبيرة لن ينجزوها وهي لاتتميز بالجودة دوماً.

وآخرون يفضلون بسائق الريبية أو الملل الانصراف إلى أعمال صغيرة سهلة، مقالات لندوات، محاضرات، إشراف على دراسات: وبذلك يتضاءل (إنتاجهم)^(*). وغيرهم يحاول تغيير بحوثه ويستفيد من هذه الأزمة لارتياح حقول جديدة، وبدء دراسات تسمى (رائدة) بتكلفة جديدة: وهؤلاء يتحلون بارادة النزو، باسترجاع حظوظهم، وقد كانت الازمة خصبة لديهم.

(*) بعضهم يعزفون عن الأمر - دون افصاح عن ذلك، ويتجهون إلى السياسة أو إلى النقاية أو إلى الإدارة، فيصبحون رؤساء: لأنها ذرائع ممتازة تتيح البدء بمهنة جديدة، وتجلب لذات طريفة كل الطرافة.

الفصل السابع

الاستعمال الجيد

1 - خيبات المهنة

الحصائل رهية في الغالب: فالمرء يرى بجلاء لدى بلوغه سنأ معينة مالم يفعل، مالم يستطع أن يفعل، الكتب التي كان في وسعه أن يكتبها، وفي هذا غالباً أفكار أليمة.

هذه الخيبات ترجع إلى المهنة أول ماترجع: فالمرء لم يحظ بالمناصب التي كان يستحقها، وبالتكريم الذي كان يحلم به، وهو يتحمل بعناء جحود التلاميذ، ونصب التعليم، ويلقى مباشرة ضروب المنافسة، ويصنف كتباً تظل مجهولة^(*). توقف الترفيع والعلاوات (بالقطارة) يثيران الحنق وكما يقول (د. روش)^(**) D.ROCHE: «الشيط ينتصر، الاعمال تراوح، النظريات لا تنتهي، التدريس والادارة يزيدان ثقلاً، وذلك كله يتلع الطاقة، ويستولي الاسترخاء الكتيب على الشباب والأقل شباباً...». ان الحسد أمر شائع في عالم المؤرخين، وهو في بعض الأحيان أقوى من روح الجماعة، ويكون في

(*) المصادفة قد تعمل ضدك أحياناً: وذلك بظهور عدد من الكتب عن الموضوع ذاته وفي الوقت ذاته.

(**) المؤرخون اليوم، القرن العشرون - تشرين الأول 1986 ص 3 - 20.

الغالب جد قوي داخل الجامعة، أو ضمن العلم الواحد: فهذه الخصومات الحرفية وهذه «المنظومات الازدرائية» ذات أهمية كبرى في الغالب: فالانتخاب لكرسي مهم، قبل 1968 كما بعد عام 1968 - كان موضوع مؤامرات بارعة، ولكن الاستقلال الذاتي الجامعي قد ضاعف هذا الميل؛ والحسد في الغالب يرتبط بشطط حب - الذات (وهذا ما يفسر دون ريب أن محاضر الجلسات الخبيثة أصبحت نادرة، لأن الواجب يقتضي مداراة الحساسيات الموسوسة بعناية) كما يرتبط بالروح المذهبية وبالسياسة (فالخصومات في الغالب لها أسباب هي سياسية أكثر منها علمية، وفي فرنسا 1991 ما تزال أمور تسوى، ترجع جذورها إلى حرب الجزائر^(*))، إضافة إلى ما سبق فهو يرتبط بتأثير التكتل والفئات والعصابات (ان العمل المشترك يكفل بعض الطمأنينة ودارات الاعجاب الذاتي المتبادل تعمل على مايرام). ومن العسير جداً معرفة خفايا مؤامرة أجيد حبكها، خفايا انتخاب (مهم). ولقد ظل اسلوب الاصطفاء ذا أشكال مائعة، الأمر الذي يفسر دون ريب حالات الحقد الراسخة، والخصومات المذهبية، والسدود الناجعة في الغالب، والاحتلال شبه العسكري لنقاط استراتيجية معينة: سيكون من المفيد جداً من الناحية المعرفية دراسة علم اجتماع الخصومات بين المؤرخين، وبذلك تُكتشف منظومات تفاهم معقدة وتضامرات غريبة. ولكن ذلك يشكّل قواعد لعبة يكتشفها المرء بعد لأي، وغالباً على حسابه.

ثم إن الخيبات ترجع أيضاً إلى أسباب أخرى: المرء يكف عن التجديد، ويقوم بأعمال تكرارية - على شاكلته^(**): صحيح ان المرء يكسب مع التقدم

(*) إن صدوع سنوات 1990 لاتزال ترجع إلى أعوام 1955 - 1962 على الرغم من صنوف الانقلابات وإعادة التصنيف. ولا ريب في أن ثلاثين سنة هو الزمن الضروري «لتصفية الحسابات».

(**) بين يدي المرء كتب يعدها دون أن تتوافر لديه شجاعة إنجازها، ومشروعات متباطئة تتجمد (سيكون من النافع جداً دراسة تاريخ الرسائل الجامعية والأعمال المهملة).

بالسن قدراً أوفى من (الحس) التاريخي، وقدراً أكبر من التجربة، ولكن شجاعة إقدامه تتضاءل وتتبعثر جهوده في الاستجابة للطلبات، وأحياناً يتفوق لديه التدريس على البحث، كما يقول بخت (جورج فريدمان)، G. FRIEDMANN يندمج شيئاً فشيئاً (في عالم العميان والغائمين). اللذة تحمي والمرء يرضخ لأخطار تخصص مسرف، ويقلع عن تتبع (مايجري)، ويرقب المشهد بلا اكتراث. وهو بصورة خاصة يحجم عن الإيمان بما فعل، ويرى جيداً (حتى ولو لم يعترف بذلك لنفسه إلا قليلاً) أن عمله عرضة أن يغدو سريعاً أمراً عتيقاً، وأن الشباب قد شرعوا يجهلونه وأن (زيه سيصير قديماً) وأنه لم تبق لديه شجاعة المقاومة.

2 - قواعد وقائية

إذا شئنا تحاشي بعض الخيبات وجب من باب الحذر أن نراعي بعض قواعد وقائية تتصل بحسن استعمال التاريخ. ولعل من باب المجازفة الكتابة في هذا المجال، لكن يبدو لنا من الضروري التفكير في الاستعمال الشخصي الذي يمكن الاضطلاع به في التاريخ (سواء أكان المؤرخ محترفاً أم «غير محترف») وكذلك التفكير في ما يمكن توقعه منه بصورة معقولة. وانه لفصل شاق، لأنه يمس حياة المؤرخ الحميمة.

القاعدة الاولى:

ينبغي افساح مجال واسع للذة^(*)، وتحاشي اضمحلالها، وتدبر أمرها (إنها هوى تمكن السيطرة عليه). ينبغي تنويع اللذة، ومجانبة مايبعث الملل أو السأم، ينبغي أن يجدد المرء أشكال لذته بتغيير المجال والاسلوب، والعثور على ينابيع جديدة للذة. وعندنا أنه ليس بالأمر الجيد الاسراف في بحث التاريخ، الاسراف في الكتابة، الاسراف في الكتابة دون تفكير - إننا اليوم لانفي لذة التفكير ولا

(*) انظر فيما تقدم (فقرة الحافر الثالث: اللذة).

لذة الكتابة حقها - الاسراف في البعد عن الناس، وفي العمل في العالم، وفي الاعتصام بتاريخ مجرد، عقلاني، املس، حيث تُعالج منحنيات ونزعات: إذ على المؤرخ إذا شاء زيادة لذته أن يهتم بالحياة الحقيقية، ألا ينسى انه كائن حي حقاً، بأهوائه، وأفراحه الصغيرة، وأتراحه الصغيرة. ينبغي على لذة المؤرخ ان تعيده إلى الحياة بدل عزله في قوقعته. ومن شأن كل إنسان أن يلعب لعبته كما يشاء، وأن يمتح لذته كما يريد: ولكن عليه أن يجيد ضبط لذته وتدبر شأنها (عليه أن يحذر اللذات التافهة، أو الخيالية أو الساخرة)(*) .

القاعدة الثانية:

ينبغي البرهان على التحلي بالحذر: ينبغي اجتناب الأوضاع المسترذله، الانخراط في قصص ايدولوجية، قصص الزي الزائع أو قصص النضال التي يصعب الإفلات من ورطتها فيما بعد صعوبة عظمى. ينبغي عدم الإقبال على أعمال مشفوعة بجميع فرص الاضطراب لتركها. ينبغي ان يكون المرء يقظاً، ان يحسب بذكاء ثمن التقدام (الغلو المذهبي، التهور باعتناق فرضيات تقود في الغالب إلى شيخوخة العمل بسرعة). ان من الضروري أن يدبر المرء بحذر رأسماله، صورته: ينبغي أن تكون لديه مجالات عديدة (حتى ولو كان ذلك باهظاً من حيث الوقت)، ينبغي: عدم الاقتصاد على تخصص ضيق باسراف، عدم الاستجابة بحسب الطلب دون فائدة حقيقية، اجتناب موجات تركيب تعطي صورة تافهة(**) (حتى لو كان من الصعب مقاومة ضغوط الاصدقاء، والازياء الدائعة، ومن الخطر نسيان قواعد سعة المعرفة - من جراء أفضل الذرائع). كان (دانييل روش) محقاً في فضح (اختيار الموضوعات تبع الطلب بدل المشكلة العلمية، تبع سرعة العمل دون الرجوع إلى المصادر الأولى، تبع العرض المخروم النتائج، وهذا يطرح حتماً مشكلة الطباعة العلمية الباهظة

(*) الندوات، الملتقيات، الأحاديث وسائر حلقات البحث تقدم في الغالب مثل هذه اللذات.
 (**) من الخطر نشر كتابات لم تُستكمل أو غير متأنية، أو «تكرارية» بذريعة الزي الدائع أو طلبات الناشرين.

واللامربحة...) الإرغام الموقوت لتقديم إجابات مبعثرة، ومداخلات حميمة بحسب ظروف حفلات المناسبات التذكارية ومبادهااتها^(*): إننا لانستطيع قولاً أفضل.

القاعدة الثالثة:

واجب الحفاظ على الاستقلال الذاتي واجتناب الإسراف في عبارة (مثل الآخرين)، الإسراف في الاتباعية (إن ذلك لا يكاد يغتفر^(**)). ينبغي على المؤرخ أن يبرز خاصيته، أن يميز الاساسي عن الثانوي، أن يحدد لنفسه أهدافاً دقيقة، أن يحسب حساباً معقولاً ماذا سيفعل خلال (س) سنة قادمة، ماذا يريد أن يفعل قبل أن يغيب عن الميدان. ينبغي عليه أن يكون قادراً على برمجة عمله في مدى متوسط، والدأب عليه، والمثابرة - حتى لو عرضت (طوارئ). إنه اختيار لامناص من الاضطلاع به: على المؤرخ إن شاء أن يخلف طابعه أن يبرهن على المنهجية، والثبات، والصمود، والوثوق: إن فكرة النظام، الانتظام، الوحدة امر ضروري لبناء عمل. فالتشتت خطر، ولكن في وسع مؤرخين المجازفة ليزيدوا لذتهم. وكل شيء يتعلق بما يود أحدهم أن يفعل خلال ثلاثين أو أربعين سنة يخصها بالمهنة. إن المؤرخ، على الرغم من الظواهر، إنسان حيسوب، لاعب حذر. إنه يلعب وهو يرقى بفرصه إلى الحد الأقصى.

القاعدة الرابعة

ينبغي لإجادة استعمال الزمان. فالزمان هو الشيء الذي يعوز المؤرخ بالدرجة الاولى، فهو لاهت دوماً، تسحقه التزاماته، وأعماله (متأخرة) دوماً. المؤرخ محكوم عليه بطبعه أن يستعمل وقتاً نادراً. عليه أن يحسب جهوده

(*) المقال المذكور سابقاً

(**) يقال بوجه عام: «ليست لديه فكرة خاصة، يكرر X حرفياً، إننا نعلم دائماً ماسيقول، إنه لايتجدد».

بأكبر دقة ممكنة: إنه يعرف ثقل الوقت الذي يضعف، ويتآكل، ويهدم. ومن المعلوم أن المرء لا يستعمل الوقت على نحو واحد في الخامسة والعشرين من العمر، أو في الأربعين، أو في الستين، فالمؤرخ الشاب الذي يحب: الحياة، التكاسل^(*)، الاستمتاع بالوقت الذي يمر، يجد نفسه منزعجاً في الغالب، لقصر الوقت، لأن صنع التاريخ بجدي والغوص بعمق في مجال التنقيب يفترض هدراً كبيراً للوقت: إن الشيخوخة تبدأ مبكراً في التاريخ. ويقول أدق يرى المؤرخ في وقت جد مبكر مالن يستطيع فعله. وينجم عن ذلك أنه يتوجب على المؤرخ ادارة ماتعذر ادارته، واستعمال المؤرخ وقته خير استعمال.

- ينبغي أن يعرف مبكراً أن الزمان شيء نادر وأن يستخلص نتائج ذلك. كان (بارز) Barres يقول: «انني سأترك عملاً أدنى بكثير من العمل الذي كان في وسمي انتاجه، لأنني لا أعرف ان امزق الرسائل دون فتحها، ولا الامتناع عن إجابة الفضوليين الذين لا يحصيهم عدّ والذين يطلبون مني صفحة صغيرة». على المؤرخ ان يحسن المقاومة، ألا يسرف في المجاملة.

- ينبغي أن نفهم أننا نشيد مبنى، واننا نحتاج إلى دعومات، وهياكل، وسقوف: ولذا يترتب علينا اذا شئنا ألا ندع البناء ناقصاً وان نجيد تنظيم جهدنا، ان نبرمج بذكاء، وان نعي اننا لامتلك عدداً غير محدّد من السنوات امامنا (لقد كانت النظرية القديمة - وهي تحفة نظام الرفقة - تعلّم اجادة تنظيم الجهد^(**)).

(*) ليكون المرء مؤرخاً يفترض اجادته التسكع، التكاسل، التشرد، «اللاتعجل»، زيارة المتاحف، الدأب على المكتبات، على بائعي توقيعات الشخصيات المتميزة: فالتسكع هو الذي يجلب في الغالب أجمل الكشوف وإن الكسول، أو مدّعي الكسل، يتحلى بأفضل «الحدوس».

(**) يعرف المؤرخ غير المحترف، واسع المعرفة المحلي - الذي مارس مهنة أخرى، يعرف في الغالب كيف يحسب على نحو أفضل، يحسب وقته، وينظم عمله، وهو يجيد الوعي بقلة الوقت الذي يتمتع به (إنه لا ينجز دوماً ما يعمل).

- ينبغي فرز المهم (انظر فيما يلي: الفصل الثامن) - أو ما يمكن أن يغدو مهماً - عما ليس بهمهم: مثال ذلك هذا المقال الصغير سيكون في الغالب أكثر أهمية بدلالته، وبمن يهمهم أمره - بعد س سنة - من كتاب ضخّم من كتب التاريخ التكراري: يجب التفكير في الديمومة المحتملة لما نفعل.

القاعدة الخامسة:

ينبغي اجتناب الغلط في تقدير ما يمكن للمرء أن يستخلص من ذاته، وأن يحسن معرفة حدوده: تحاشي القاء خطاب عند اضطراب الفكر، اجتناب صنع تاريخ العلوم عندما تعوز الثقافة العلمية، وتجنّب صنع تاريخ المشروعات الاقتصادية إذا كان المؤرخ يكره المحاسبة، وعلى المرء الامتناع عن إدارة مجلة إذا أعوزته المواهب الدبلوماسية: تلك قواعد بسيطة من قواعد الحذر. يجب الامتناع عن العمل، أو عن رغبة العمل، في الوقت اللا موائم، يجب التكيف مع الظروف، مع الجماهير، ينبغي الرغبة في إعلان الحقيقة مهما يكن في الأمر حتى لو آمن المرء إيماناً شديداً بأمر من الأمور. إن كون المرء مؤرخاً يفترض نوعاً من القدرة على الحذر من الذات: يجب التحلي بحس النسبية، بحس (الموائم)، تصديق كل شيء، قول أي شيء. المؤرخ أليف التفتن للأهواء الانسانية، للحماقة، للحسابات الدنيئة، للأمور المختلطة: إنه يسيء الظن حكماً بما يقول الآخرون. والمهنة تقود إلى اللاتصديق، إلى الحفاظ على بعض مسافة عما يفعل، والحق انه لا يؤمن بمتانة مايكتب، ولا بديمومته. والريية تتميز بانها تحمي من بعض الأوهام. ولكننا لاندري لماذا لايتصف المؤرخون بانهم ريبون دائماً: يجب أن يكونوا قد عاشوا خارج مكاتبهم، وان يكونوا اضطلعوا ببعض المسؤوليات حتى يجيدوا فهم حدود مايفعلون أو يكتبون^(*). لنذكر بأن اللاعب الجيد ينبغي ألاّ يسرف في العودة باللائمة على اللعب: وإلا أصبح لاعباً سيئاً.

(*) انظر رأي (رينه ريمون) المذكور فيما بعد : الخاتمة.

3 - واجبات المؤرخ

في وسعنا التساؤل عن واجبات المؤرخ اللازمة: اننا ندرك كل الادراك مطلب الدقة و الامانة و الجد و الدأب مما يترتب عليه أن يتحلى به إبان عمله و في الختام . و لكن لعل من الواجب المضي إلى أبعد. فاذا تساءل المؤرخ: ماذا ينبغي أن أعمل؟ ماذا أستطيع أن أفعل؟ فلن يكون الجوابان بديهيين. ذلك أن المؤرخ يفترض عدداً من المهن أو الوظائف وهو محكوم في الغالب بالاضطلاع باختيارات صعبة. ونحن نرى بوضوح ماهي رسالة التعليم، والإشراف على البحوث، وكتابة مقالات أو نقل المعرفة، وندرك كذلك بوضوح ماذا يعني البحث بالمعنى الصحيح، التعمق، التنقيب في قطاع، ولكننا نرى بتقدير أسوأ هذه المهمات أو الالتزامات المتعددة، (الخارجية) التي تلتهم وقت المؤرخ، وتصبح في الغالب قاهرة ذلك أن لكل انسان في هذا المجال طرائقه، وأولوياته، ولذاته الخفية، ومن العسير جداً التعميم. ولكننا ندرك أحياناً أن من العسير الإلمام بمؤرخ كتب قليلاً، ولكنه علم كثيراً، وأشرف، وأدار، وأحدث تأثيراً، ولم ينكفيء على نفسه في مكتبه. وغير خاف أن هذه (الملحقات) بالمهنة تزداد إلحافاً (ونحن ندع جانباً مختلف المجالس، أو اللجان الجامعية التي تبدد وقتاً ثميناً): مالنصيب الذي ينبغي أن نخصها به؟ كيف نواجهها؟ كيف نختار؟ إن الصانع الماهر في التاريخ هو ذاك الذي لم يهمل هذه الالتزامات الملحقة التي تحتقر في الغالب، وتكون مكافأتها هزيلة، والتي (يعوزها الألق الرومانسي)، كما لاحظ (مارك بلوخ)، ولكنها، في الغالب، أمور أساسية في المهنة، وهي تكشف النقاب عن واجبات لازمة ناجمة عن تقاليد الحرفة، وهي تستلزم في الغالب فطنة، ودبلوماسية، ومرونة، وسرعة خاطر. فلنسع، على نحو اعتسافي محض، إلى تعداد هذه (المهن) الملحقة:

1 - التفكير في طرائق التاريخ، في الاستمولوجيا: إن نصيب هذه

الابحاث ضئيل جداً بأسراف في فرنسة(*) . ويترتب على كل امرئ في مجاله أن يتعمق الموازنات، التأملات الضرورية (ندوات المناهج، ايضاح الصلات بين العلوم).

2 - التفكير في الآفاق المستقبلية للدراسات التاريخية (أو لأحد فروعها)، تفكير في شروط نمائها(**)، في تنوع الطلبات، في حال الدراسة في سنتي 2010 - 2020:

ينبغي على كل مؤرخ أن يوجّه جهده في هذا المنحى.

3 - التفكير في جدل الدراسة التاريخية. كان (دانييل روش) يقول سنة 1986(***) «إن إنفصال التعليم العالي عن الثانوي لن يكف عن الازدياد اذا رفضنا، على نقيض علماء الرياضيات والفيزياء، التساؤل عن جدل اختصاصنا». ومن الملاحظ أن المؤرخين الجامعيين لا يدعمون إلا دعماً جديلاً ضئيلاً معلمي الثانوي وإن مهمة هؤلاء مهمة جاحدة، كما يدعمون جهود التجديد وإعادة التدريب في التاريخ: وهذا موضوع جدير بالتأمل(****).

4 - الاتصال بجميع أشكاله: تكيف الدراسات وفق الجمهور الواسع، استخدام وسائل الإعلام الجماهيري (التلفزة، الإذاعة، الإذاعات المحلية، شُرط

(*) لايعني المؤرخون بالمنهجية (أو بالاستمولوجيا) إلا قليلاً في الغالب لأنهم يكادون لا يستطيعون تلك المواد ويحكمون بأنها شأن فلسفي (لكل مهنته)، وعلى الأخص لأن من العسير جداً عليهم تفسير المواضعات، والأسس التصورية لمهنتهم (ذاك بديهي، لأنها ممارسة لاحتياج لبيان). وهذا مايفسر بلا ريب مثلاً غياب فحص نظري لأسس التاريخ الاقتصادي (إذا يُكتفى باعتماد أحكام مبيّنة بسيطة).

(**) انظر ج. تويليه G.THUILLIER كيف ننمي قطاع بحث في التاريخ المعاصر، الحركة - الاجتماعية 1988 ص 31 - 43 والمثال على ذلك جان تولار J.TULARD : الدفاع عن التاريخ الإداري وإيضاحه - المجلة الإدارية 1987 ص 422 - 426.

(***) المقال المذكور.

(****) ماعدد مؤرخي التعليم الذين يشاركون في منشورات وأعمال التكوين في المراكز المحلية أو الاقليمية للتوثيق التربوي؟

الفيديو) المجالات و المسلسلات. و هذا المجال من المجالات التي يبلغ ضعف التفكير فيها اكثر ما يبلغ، ولا ندري كيف يستجيب لطلب اجتماعي (غير رسمي) (و نحن لا نكاد نسعى لتحليله).

5 - الإتصالات مع المؤرخين الاجانب: إننا نملك في الغالب تصوراً فرنسياً خالصاً للعلوم، و لا نعنى إلا قليلاً بإسراف بالمقارنات المنهجية، و بنقل المستجدات (اللهم إلا في العلوم الدولية بطبعها مثل تاريخ الفن و تاريخ الأدب)، أو بقول أدق بالنظرة الأمامية إلى هذه المعلومات^(*).

6 - مساعدة الشباب: إن الوقت المخصص للإشراف على البحوث، و لتكوين الشباب، وتشجيعهم آخذ بالنماء، ولكن على نحو ما كان يقوله عالم الإقتصاد (شارل ريست) CH.RIST سنة 1926: «من أروع متع التعليم الإتصال بالعقول الشابة التي ما برحت الحماسة و الفضول عندها يحتفظان بنضارتهما (...). إنهم يقصدون الكبار ظانين انهم يمتحون منهم خدمة، و لا يدركون أننا نحن المدينون لهم في أغلب الأحيان»: إنها الرسالة الأكثر قبولاً.

7 - مساعدة المؤرخين غير المحترفين، وواسعي المعرفة المحليين الذين ينهضون بدور أساسي في الإنتاج التاريخي^(**): و هذا قطاع مهم جداً في الغالب.

8 - دعم الجمعيات العلمية - القومية والمحلية - و هي مركز مبادأة، ومقارنة وأحياناً (تجريب): وإن هذا الدور دور اساسي على الرغم من أن الصيغة تبدو جد تقليدية في الغالب.

9 - أعمال حماية المحفوظات (الخاصة أو العامة)، وحماية المكتبات العامة، والآثار، واللوحات: وهذا (الدور) مهم في الغالب ولكنه دور أساسي لأنه يتصل بحماية مصالح مؤرخي المستقبل (إنقاذ محفوظات مصرف، الحصول

(*) من شأن جرد مبادرات المؤسسات أو الجامعات أن يبين بيسر البقع الفارغة في المصوّر.

(**) لقد رسم (بول لويلوت) الخطوط الأساسية لنظرية هذا التاريخ المحلي، (التاريخ المحلي والتاريخ السياسي) - حوليات ESC 1974 ص 139 - 150.

منه على تمويل محفوظات الأقاليم وهو بلا مراء أكثر أهمية من كتابة مقال عن هذا المصروف). وغير خاف أن الإهمال كبير في هذا المجال^(*).

10 - مساعدة إنتاج أدوات العمل: كُتِب دليل البحوث، كُتِب جرد، كُتِب مراجع، فهارس المتاحف، حال المصادر، ملاحظات منهجية، بنوك المعطيات، إننا نغلو في نسيان أهمية هذه الأعمال: كُتِب (مارك بلوخ): (إننا نرى أحياناً متعلمين طائشين يستغربون الوقت الذي ينفقه (...). بعض واسعي المعرفة لتأليف مثل هذه الكتب (...). كما لو أن تبديد الطاقة^(**) الأكثر افراطاً لم يكن يحسب وقرأ، بفضل الساعات المبدولة على أعمال ينقصها بالتأكيد ألق رومانسي، لئلا تكون بلاجاذبية خفيفة). ينبغي دعم هذه الأعمال وتشجيعها وتكريمها: فهي في الغالب شرط لازب لنمو العلم.

11 - دعم نشر تقنيات مساعدة جديدة للبحث (معلوماتية، بنوك المعطيات، إقامة محفوظات شفوية، محفوظات سمعية - بصرية) يمكنها تغيير طرائق البحث خلال عشرين أو ثلاثين عاماً: إن الوقت المخصص لهذا (الدور) قد يكون الأكثر إنتاجاً، والأمر أمر استثمارات طويلة الأجل ومن الواجب عدم إهمالها.

إن المؤرخين، بسائق الخجل أو الوسواس أو اللامبالاة، لا يعنون في كثير جداً من الأحوال بهذه المهمات الملحقة، ولا يفهمون دوماً أهمية هذه الأفكار المستقبلية، هذه التجديدات، ويفضّلون حراثة حقولهم على الطريقة التقليدية، ولا يفكرون فيما سيحدث عام 2020 أو 2030. أجل، إن الوقت يعوزهم: ولكن الوقت ليس كل شيء: فلكل واحد بحسب منزلته ووسائله واتباعه واجبات لازمة في هذا المجال، وعليه أن يتساءل عما يفعل أو لا يفعل.

(*) على هذا النحو تُهمل أوراق الأساتذة، أوراق واسعي المعرفة تفتل ... والمؤرخون يبالغون في اللا اكتراث بطرق جمع المخطوطات المعاصرة وحفظها. ولم يقد أحد بعد بجمع محفوظات شفوية لدى المؤرخين.

(**) امتداد التاريخ طبعة 1974 ص 66.

الفصل الثامن

المهم في التاريخ

(تمن الحرفي الذي سلخ في المهنة عمره وتساءل ذات مرة، دون انقباض نفس، إن كان قد أحسن استعمال عمره؟). هذه الجملة الصغيرة التي كتبها (مارك بلوخ) سنة 1941^(*)، جديرة بأن نتوقف عندها: إن القاء نظرة فاحصة على ما فعل المرء، (أو لم يفعل) تمثل على الدوام تدريباً شاقاً في مهنة فكرية. ماذا يعني حسن استعمال العمر في نظر المؤرخ؟ هل يعني استعمالاً معقولاً (أو منهجياً)؟ استعمالاً رهناً بأشياء جادة مهمة؟ أننا نلمس هنا المشكلات الرهيفة، مشكلات الاخلاق، قواعد السلوك الشخصي: ولكن هل يعدل ذلك سبب اجتناب طرحها، حتى لو كان في الأمر بعض إعتساف حتماً؟ هل يجب أن نخفي عن أعين المؤرخين الشباب أن اختياراتهم أمور جدية؟ ألا إن الأفضل هو التصدي لهذه المشكلات، ولو بصورة مواربة.

(*) امتداح التاريخ - طبعة 1974 . كان (مارك بلوخ) يذكر في نهاية المقدمة بضرورة أن يفكر المؤرخون الشباب بممارسة مهنتهم: «أود للمؤرخين المحترفين، ولا سيما الشباب، أن يعتادوا على التفكير في تردداتهم، هذه الصنوف من «الندم» الجائمة في مهنتنا. وسيكون ذلك بالنسبة اليهم أفضل لحظة للتهيثؤ لتوجيه جهودهم توجيهاً معقولاً من جراء اختيارهم المدروس...». بصورة مقعولة: إن تأمل المرء عمله يقوده إلى توجيه وقته توجيهاً معقولاً.

ما المهم في التاريخ؟ ان هذا السؤال يثير ازعاجاً كبيراً^(*)، ولا يمكننا أن نجيب عنه سوى إجابات جزئية غير مرضية. الشيء المهم يغطي وقائع مختلفة يحسن وعيها بدقة:

- من جهة أولى، إنه ماينبغي فعله، مبادرته، إنه المهم بالنسبة لي: المهم يحيل على سيرة حياتي، على مستقبلي.

- من جهة أخرى، إنه ماينبغي رؤيته، إدراكه، فهمه: الأهمية هنا تأملية، لاشخصية، إننا في عالم الأفكار، وثمة شيء من الفاصل بالضرورة بين هذه الأفكار وبين مشروع.

- أخيراً، انه ماينبغي نقله، ماينبغي إظهاره، إنتاجه، ابداءه للآخرين. المهم هو مأظهر، مأنقل. ولكن هذا المعنى لايتضح دوماً لأننا لانملك سوى بضعة سنين صالحة لنقول ماينهم قوله، لنبدي ما هو مهم، وإن (إنتاج) المؤرخ هو بالضرورة نهب موزع بين الدروس، والمقالات، والاشراف على البحوث، وهذا أمر يقودنا، لامحالة، كما رأينا إلى بعض الهدر. وإن عבודيات المهنة، وهي تجعل المرء مستغرقاً في قواعد اللعبة، لاتدع له في الأغلب من الأحيان وقتاً ليقول، أو لينتج (المهم) ، لينقل (ما يهم فعله).

يتضح أن كلمة مهم ترغمننا على تحليلات في خواء، تحليلات شخصية جداً : أتراني أجدت فعل ماكان من المهم فعله؟

آ) المهم، بالتعريف، يأبق من المؤرخ غالباً، ولا يني يفلت منه: إن المهم في بعض الفروع (ومثلاً في التاريخ القديم) سيفلت منا دوماً، وحتى في التاريخ المعاصر. الشيء الاساسي سيفلت منا: موت رجل دولة يفقدنا راسماً نادراً من الذاكرة على نحو لايعوض. وغير خاف أن مايفلت من المؤرخ هو مالا يوجد في

(*) اللفظ يتكرر غالباً: «هذا الكتاب مهم، لقد عالج ماكان مهماً، ماسيدو مهماً فيما بعد في هذا الكتاب، مايعتقد المؤلف أنه مهم»: إن الصيغ الرامية إلى الحكم بالأهمية صيغ كثيرة.

المحفوظات، مالا يمكن بلوغه والذي يكون في الغالب هو (الأهم): كالصّلات بين الاشخاص وإدراك المستقبل، إذ: «ان المستقبل كما كان يتصوره انسان الماضي يشكّل جزءاً مهماً من تاريخنا حسبما كان يصرّح فاليري»^(*)، وما يفلت من المؤرخ أيضاً حياة الناس العاديين... المؤرخ محكوم عليه بان لايعرف، يجب عليه التوقف في ماقبل، إنه لا يستطيع إدراك الخطاب الداخلي، الادراكات الفردية، الاحلام. ومن المعلوم ان مايدو مهماً في التاريخ ليس بالاحصاءات، ولا الأرقام، ولا التمثيلات العامة، الجزئية - بل إنه المعاش، المدرك، فحوى الحلم، اللابئين.. اجل، إن لكل مؤرخ قواعده الشخصية لتعريف المهم في مجاله، ولتمييز المهم عما هو أكثر اهمية. وعلى هذا النحو يبرز المؤرخ (افتراقه). إنه يدرك مايدو له (الأكثر اهمية)، ولكنه لايجرؤ على الجهر به بدافع الوسواس أو الخجل. إن اعلان (الاكثر أهمية) يعدل إقامة صوى - بصورة موقوته - وتثبيت تراتبات، أولويات عمل: وذاك عمل صعب أحياناً، شاق، والمرء في اغلب الأحيان ينسى النهوض بهذا الجهد الضروري من التفكير التمهيدي في كل مشروع (مثال ذلك: يجب الحرص لدى كتابة سيرة حياة على التفكير في مالا نعرف، في المناطق المغمطة، في المموه، في السري، في مالا يذكر أبداً). وفي كل خطوة من خطى البحث، يحسن تخمين ماهو المهم الذي لانتحدث عنه، والتفكير بما ينبغي الاسراع بالقيام به، بالقطاعات الاستراتيجية التي ننسى ارتيادها لانها (صعبة) باسراف، (تقنية) باسراف (تاريخ النقود أو تاريخ الصلاة)، والتي ينبغي، بالرغم من ذلك، اقتحامها (مهما يكن ثمن الجهد أو عوز المصادر). وكذلك ينبغي على المؤرخ ان يفكر في مايمهم نقله، وفي طرق النقل (التراكيب خطرة، والمرء عرضة في الغالب للسقوط في الخطاب عن التاريخ، ولا يكون لديه بالضرورة سوى نظرات جزئية، موقوته، وربما كان (دليل مصادر) عمل أكثر أهمية من مثل ذاك التركيب اللاهث الموجه للجمهور الواسع، التركيب الآيل الى البلى.

(*) دفاتر - (20 ص 276)

إننا نرى بوضوح أيان يقودنا ذلك: إلى قائمة بالاولويات، إلى مراجعات دورية لما هو مهم. والمؤرخ مضطر حكماً لجرد مافعل، وتمييز المهم في كتلة أعماله، تمييز ماسبقاوم الأيام، عما ليس بهمهم ... فهو سجين ماضيه الى حد كبير أو صغير، سجين بعض أوهام المهنة، أوهام عن الذات: (المهم) امر يدركه هو بصورة مبكرة جداً، ولكنه ينصرف عنه من جراء ضغط اليومي، ضغط عبوديات المهنة، والأزياء الايديولوجية، وينتهي به الأمر إلى أن يعمل في الأقل أهمية، لينسى (ماكان من المهم صنعه) - وفي مرحلة من مراحل العمر، يحاول الرجوع - ولكن سدى - إلى ماكان مهماً، أو كان يبدو مهماً عندما كان هو أنضر عوداً^(*)... ليس من السهل وعي هذه الاشكال من الاهتراء. المؤرخ مفتون دوماً بوصف عمله بأنه أملس، دون مشكلة.

وإن قولنا عن شئ من انتاجه إنه مهم، أو إنه أكثر أهمية، تحول يزعجه - وهو يعرف حق المعرفة إنه لم ينتج كل ماكان في وسعه أن ينتج من أمر مهم: وهذه العودة على الذات عودة رهيب. ولكن اين هو الحق في هذا المجال؟ إن الأهمية ترجع إلى الخيالي. ومن المحتمل، أو الثابت أحياناً، أن مأحسبه مهماً والذي يشعرني باللذة والنفع لأهمية له في نظر زيد أو عمرو. فثمة بالضرورة طائفة تامة من تفاعل الظواهر والأوهام مما لايجب المرء إيضاحه إلا قليلاً.

ب - إن التفكير في المهم هو في الوقت ذاته تفكير في معنى عمل المؤرخ، وقيمه. بيد أن ذلك لاينطوي على أفكار جلية ولا نيرة: والمؤرخ لايكاد يميز في العادة أهمية مايفعل، وإن حكمه بالضرورة زائف أو منحرف، وأوهامه مألوفة.

(*) المؤرخ يدور غالباً حول حدوسه الأولى التي ترجع إلى الخمسة والعشرين أو الثلاثين من عمره، أحلام شبابه التي كانت «أكثرها خصباً». ولكن عندما يعود إليها في سن النضج (أو في سن الإحالة على المعاش) يلقي مشقة كبرى في تحقيق هذه الحدوس. فلم يبق له ذاك الإيمان، وقد فقد كل مالا أعرف مما يتيح تخطي العوائق، والنجاح في ما كان يبدو متعذراً، إرادة حياة كانت تيسر له أن يكون مؤرخ المستقبل.

والمرء لا يكاد يحسن معالجة هذه المشكلات. ولعل من الواجب اللجوء إلى معالجتها معالجة اختبارية محضنة: لنحاول تقديم بعض التعريفات:

أولاً: المهم هو ما يعكر الصفو، يربك، يزعج، ما يعارض السطح الأملس، يعارض طمانينة الجاهز. إنه مايوسوس، ما يراد تحقيقه بالرغم من رأي الأستاذة، والاصدقاء وضيق الوقت: المرء يحس بالحاح معالجة هذا الموضوع المحرم، إرتياد هذا الفراغ في المصوّر. وإن حدس الأهمية ذاك يهب شجاعة الإقدام، التجديد، بل والافتحام: ونحن نجدنا إذ ذاك أمام مغامرة المؤرخ الفردية (ولكن ذلك نادر في غضون الاحتراف).

ثانياً: المهم هو الخفي، الموه، المكتوم، المدفون في كتلة التقاليد، والأزياء الايديولوجية، في التفكير في الذات لمكافحة الظواهر، وإمالة اللثام عن المُبْعَد، لاكتشاف النواة الاصلية، ومثلاً لادراك أن تاريخ الصلاة في التاريخ الديني هو (الشيء المهم) أو أن الملح في التاريخ الاجتماعي هو بحث تاريخ التوليد.

ثالثاً: المهم هو ما ينبغي بالضرورة تعقيده بدل الاستسلام إلى أفكار بسيطة، ملساء، مطمئنة: يجب على المؤرخ أن يعقّد (انظر فيما سبق: الأوهام المهنية)، أن يعمّق، أن ينقّب، ولكنه لن يضع لتعقيده نهاية. فثمة دوماً جوانب عائمة، لا يقينية، لامحددة، وإن القواية الكبيرة - لأسباب تربوية بديهية - غواية التبسيط، والتقرير (والكتابة): (لقد جرى الأمر على هذا النحو)، بل ونقول: (لقد حدث كل شيء كما لو). إنه شرك يقع المرء فيه ييسر عظيم بنتيجة الكسل أو السهولة أو تذوق الوضع، أو الاهتمام بـ (الازياء) (مثال ذلك في تاريخ المؤسسات أو تاريخ الطب). بيد أن من المعلوم ان على المؤرخ أن ينظر ببراعة أنه لا يعرف الشيء الكثير، وأنه يبقى على الدوام قبل النهاية (مهما تكن غزارة المصادر: ولكن المؤرخ يرضخ، في جلّ الأحيان للבלاغة وللتهور في مسعى البرهان، في أن (يقول الحقيقة)....

رابعاً: المهم هو ما يتغير أيضاً على مرّ الأيام، ما يرتبط بالزمان الخاص بالمؤرخ. وينبغي الانتباه بعناية كبيرة الى زمن الأهمية: هناك ماهو مهم قبل

خمسـة عشر عامـاً، وهـناك ماهـو مهـم الـيوم، مـأشـعر سـلفاً بـانه مهـم، ولـكنـني سـأخـفـق ربـما إذـا شـئت إظـهاره، (انتـاجه)، وهـناك أـيضاً مـاتـنبأ بـانه لـابـد مهـم لـي بـعد (س) سـنة (إن شـاء الله) (لـيس لـدي سـوى حـدس نـاقص بـذلك، حـدس جـزئـي). إن المهـم لـدي الـآن لـن يـستـمر. فـجـمـيع الـآفـاق تـنـزلق، تـمـحـي، لـاشـي بـدائـم: وعـندما نـعي هـذا الـانـزلاق، هـذا الـوهـن، قـد لـانـكـتب عـلى النـحو ذـاته مـقالـة أو كـتاباً.

إنـنا نـدرـك الصـعوبـة القـصوى للـتنبؤ بـدروب المـؤرخ، لـادرـك الـاخـطـاء، النـدم، الـاخـفـاق: فـذاك امـر مـحال فـي الغـالب. زد عـلى ذـلك المـلاحـظـة التـالـيـة: عـندما كـنا شـباباً كـانت لـديـنا بـعض أفـكار صـحيـحة، بـارعة، ذـكيـة، ولـكنـنا لـم نـحـسن تـثـمـيرها، فـأخـفـقنا فـي صـنع ماكان يـجب صـنعه «المهـنة»، الـظـروف، الـآخـرون، كل ذـلك يـصلـح ذرائع تـمويـه سـهل)، عـلى نـحو يـفـرض وجـوب المـضي الـى نـوع مـن فـحص الـضمير، وطـرح بـعض اسـئـلة اسـاسـيـة لـقياس الطـريق الواجب إتـباعه وتـحـديد صـوى؟:

- 1 - هل لما صـنعتُ الأهمـيـة الـتي اعـزوها إلـيه؟
- 2 - ماخـصوبـة ما أصـنع بـعد (س) سـنه؟ هـلأ أجـدت الحـساب الـضروري لـعامل البلى؟

3 - هل يـنبغي عـلي تـغيـير (المـجال)؟ هل يـنبغي عـلي أن انـتـقل الـى ما يـبدو لـي الـيوم انه أكـثر أهمـيـة أو الـى ما سـيـكون أكـثر أهمـيـة بـعد (س) سـنة؟ إنـنا نـلمـس لـبس مـثل هـذه الـأسـئـلة: والمـرء لا يـكـاد يـصـوغها إلـا بـمناسـبة أزمـات خـطـرة إلـى حد كـبير أو صـغير: ازمـة شـك فـي الذـات، أزمـة تـثـيـط، ازمـات تـشـتت، تـعب مـن المهـنة... إن كل مؤرخ مرغم فـي وقـت مـن الـأوقـات عـلى قـيـاس الدرب الـذي قـطـعه، عـلى تـحـديد مـوقـعه (وهـو واعي بالحد الأخير: مـوت عـمله، النـسيان). ولـكن هـذه النـظـرات كلـها كـريـهة غايـة الكـراهيـة: وكـلـما تـقـدم الـانـسان فـي السـن حـاول أحيـاناً الإـفـلات مـن التـساؤل الـى اقـصى الـحدود، وغـدا خـجـولاً، ونـسي طـوعاً (ماهـو مهـم)، وأراد (كـسب الـوقت).

ح - ترى أمن الممكن استخلاص قواعد شخصية من هذه الأفكار؟ لابد من اللجوء إلى كثير من الحيلة لأن الأمر كله يتبع المزاج الفردي، السجية: لكل امرئ عادته الصغيرة للدفاع عن ذاته ضد الزمان. وعلى الرغم من ذلك يمكن لفت الانتباه إلى بعض النتائج:

النتيجة الاولى: اذا كنت واعياً لما هو مهم لدي (والذي يهمني أن أفعله) فأنا لن أفعل الأشياء على النحو ذاته، لن أتبع في بحوثي الطرائق ذاتها: مثال ذلك، سأعقد الأمور عن عمد، سأسعى للمضي إلى ما وراء الأمور، سأستغل (الأكثر أهمية)، سأحدّد (أولويات) (وسأهمل بعض القطاعات «الأقل أهمية»). ان وعي المهم يوجب القيام بمراجعات مذهبية، بل وإلى سلوك مغاير: مثلاً، يجب رفض فعل مالا أهمية له، القلق من هدر الطاقة، من بعض التشتت اثناء العمل، المحاضرات، الأسفار، وبكلمة واحدة، يجب على المؤرخ إدارة وقته على نحو أفضل (أو صورة وقته على نحو أفضل)، الذود عن الذات حيال الآخرين ذوداً أفضل... ينبغي إجادة أيا ن يمشون بنا: إن (الأهم) هو ما به أرمي إلى البقاء، إلى الانتصار على النسيان، الموت، التي تجاوز البلى - وهو مسمى (محال) بالبداية (يعني ذلك كل مؤرخ) ولكن ينبغي أن يعمل «كما لو كان ممكناً»: الموت - موت الأعمال - هو، كما نذكر، القاعدة، الوحيدة في اللعب مع اللذة، وينبغي أن نحسن استخلاص الدرس منها.

النتيجة الثانية: مهما تكن سن المؤرخ فإن عليه أن يُحسن استعمال الوقت الذي يبقى له. إننا ندرك، في وقت من أوقات العمر، ما هو مهم، ولكننا لم نبادر إلى ارتياده، ندرك ما أهملنا أثناء عملنا، وهذه المشاهدة رهيبه أحياناً. ينبغي طرح بعض أسئلة على الذات (ولو كانت اسئلة مؤلمة):

- 1 - ما الشيء المهم الذي نسيت ان أفعله؟
- 2 - مانصيب الوهم فيما حسبت البارحة، أو ما أحسب اليوم، انه مهم؟
- 3 - ماخطاء الاتجاه التي اقترفتها؟
- 4 - اتراني كذبت على نفسي فيما كان من المهم صنعه؟

لقد كان (سلفستر بونار) S. BONNARD. يطرح أو يكاد أن يطرح - هذا النوع من الأسئلة. إن التاريخ مهنة مهلكة. ونحن ندنو هنا من حالات مرض المؤرخ، فهو يعرف أحياناً الشك في ذاته، التثبيط، القرف من البحث، سوء الظن، الحسد، الغيرة. وهذا مايفسر تراجع المؤرخ أمام مايمهم صنعه - حتى عندما يجيد ادراكه - من جراء وساسوس، أو ضعف، أو خوف (عندما يكون أمر مهماً فإنه لايجرؤ على قوله، على تأكيده: (هذا أمر مهم)، إنه يخشى التهكم، يرتاب في ذاته، يخاف أن ينفق في عمله وقتاً، طاقة).

النتيجة الثالثة: عندما يجيد المرء معرفة المهم، يجدر به أيضاً أن يفكر في بعض وجوه المؤرخ: التشتت، خطر (ولكن من الواجب أن يعرف كيف يضيق وقته)، طول مدة الأعمال (ألا يكون هامش قصير كتبه لوسيان فيفر أودوم عمراً من كتاب ضخيم معين؟)، التفكير المنهجي (مساعدة الآخر على التفكير، أليس ذلك هو الأكثر أهمية؟)، الحذر من السياسة (كل ما في التاريخ «مسيئ» آيل الى البلى)، الحظ (المهم في بحث من البحوث يرجع أحياناً الى العناية الربانية: تلك المصادفة، ذاك العرض، تلك الصداقة...)، فن طرح الأسئلة الجيدة (إن طرح سؤال بذكاء يفوق من حيث الأهمية أحياناً - ويفوق بالصعوبة، الاجابة عنه)، اللذة (ليس المهم دوماً هو الذي يجلب «اللذة» الأكبر).

إن التفكير في الأهمية قد يقود إلى بعض أشكال الريبة. المؤرخ ليس البتة كائناً عقلانياً، يشك دون غلو في التساؤل، انه يحاول طمأنينة فكره. ولكن ذلك يعدل فكرة يترتب عليه أن يعتنقها بصورة شخصية، بسائق الفضول، كي يعرف العون الذي تستطيع أن ترفده به عند الاقتضاء: إنما تحديد مايجب تحديده أمر ضروري لمن شاء إن يجيد فهم وظيفته.

الفصل التاسع

جمهور المؤرخ

المؤرخ يكتب حتى يُقرأ. يقرأه زملاؤه المتخصصون وطلابه إن كان استاذاً. واذ ذاك يكون الكتاب استطالة تتمم التعليم وتزيده دقة. ولكن المؤرخ، وإن لم يكن عامل تعميم وحسب ولا روائياً باحثاً عن موضوع، إنما يتمنى أن يمس جمهوراً كبيراً. فمن المهم اذن ان نعرف طبيعة هذا الجمهور، وامانيه، والواجبات المترتبة نحوه على مؤلف كتاب في التاريخ.

1 - القارئ

لقد اتسع جمهور المؤرخ اتساعاً ضخماً. اجل لقد لقي تاريخ عهد القنصلية والامبراطورية لـ (تيير) THIERS اقبالاً شديداً في القرن التاسع عشر، ولكنه لم يبلغ ماقد يتبادر إلى الذهن. وكذلك الكتاب الكبير لـ (لافيس) LAVISSE المنشور لدى (هاشيت) بعنوان تاريخ فرنسا. وفي السنوات العشر الأخيرة تجاوز عدد نسخ بعض تراجم الحياة المائة الف نسخة: كتاب (بلوش) BLUCHE بعنوان لويس الرابع عشر، كتاب (موراي كندال) MURRAY KENDALL بعنوان لويس السادس عشر، كتاب (فافيه) FAVIER بعنوان فيليب الجميل ... فاذا فرضنا ان النسخة الواحدة يقرأها وسطياً اثنا عشر شخصاً، أدركنا أن هذه المؤلفات، وإن كانت ذات

مستوى رفيع، قد بلغت جمهوراً أكبر من الجمهور الذي عرفة كتاب (لايس) عن «لويس الرابع عشر» أو كتاب (شامبيون) CHAMPION عن «لويس الحادي عشر». إننا نعرف الاقبال الذي حظي به كتاب (مونتايو) (MONTAILLO)، قرية اوكسيتانية لـ (روي لودري) ROY LADURIE أو كتب (بيير ميكل) P. MIQUEL. الجامعة عن الحريين العالميتين. وما بالكم بكتب (آلان ديكو) A. DECAUX. ولا سيما كتب (اندره كاستيلو) A. CASTELOT. (ماري - انطوانيت، نابليون ...) المعدة للجمهور الكبير.

لقد فقد الشعر قراءه منذ زمن بعيد. ويعاني النوع الرومانسي من مبالغات الرواية الجديدة. بل إن قصص (بولار) POLAR البوليسية ذاتها تعاني من الانبهار، وبالمقابل فإن التاريخ يمضي بصحة جيدة.

مأسباب هذه الغصة؟

إنها غصة اصطفاء. هناك أولاً افتتان بالعظماء: نابليون يحتل المرتبة الاولى (ان كتاباً عن نابليون يكفل حداً أدنى من مبيع الفني نسخة مهما تكن طبيعة الكتاب، يليه (لويس الرابع عشر)، (وجان دارك) وعظماء الثورة). وبالمقابل، اصيبت سلسلة عنوانها «المجهولون في التاريخ» باخفاق نسبي، دون مسوغ كبير.

ثم هناك سحر بعض الفترات. لقد انجبت السنوات السوداء 1940 - 1944 طائفة من الكتب حظيت بوجه الاجمال بجمهور كبير (انظر النجاح الذي حققه نقش هنري امورو A. AMOUROUX)، وتلي فترة (الثورة الامبراطورية). وبالمقابل، فإن عشرينات 1815 - 1848 تثير اهتماماً أقل من الاهتمام بـ (الامبراطورية الثانية).

إن ذوق الجمهور يتجه بطبعه شطر سيرة الحياة المتميزة بأنها إن لم تكن رومانسية الصبغة، فهي لاتسرف في سعة المعرفة. فالقراءة هنا انطلاق، حلم.

القارئ ينشد فيها ما كتبت الرواية عن تقديمه. أليس (نابليون) هو القائل في نهاية المطاف: (يا لحياتي من رواية!).

ولكن الجمهور يسعى كذلك للحصول على المعرفة مما يقرأ. ومن هنا نجاح كتب وإن كانت تقوم على سعة المعرفة من طراز (معجم نابليون) (فايار)، ويليهِ (معجم القرن العظيم) (للتاشر ذاته). ثم إن الكتاب المرجعي، والمنتخبات العالمية، هما من الكتب المطلوبة باكثر من كتب المحاولات المتألقة ولكنها مسرفة الانغماس في اللحظة الراهنة فلا يكتب لها إلا نجاح عابر.

وأخيراً، يود قراء الكتب التاريخية ان يمتحوا منها عبراً. معرفة الماضي لفهم الحاضر فهماً افضل: إن تاريخ الحصار القاريّ يساعد على فهم حصار العراق عام 1990 على نحو أفضل.

2 - واجبات المؤرخ تجاه قارئه

على المؤرخ واجبات تجاه قارئه كما على البائع حيال زبائنه.

الواجب الأول: الوضوح. لقد كانت الغواية كبيرة على الدوام، وهي تحمل المؤرخين على الكتابة بلغة مجردة غامضة بحيث تمضي في مجازاة العلوم الدقيقة. وقد حاكى التاريخ الاجتماعي أحياناً علم الاجتماع، وأسرف التاريخ الاقتصادي باستعمال المنحنيات والأشكال البيانية، وهي مما لا يحيط به القارئ المتوسط إلا قليلاً. وإن فكرة أن يكون العالم غير مفهوم لدى الجماهير فكرة تضاد الروح العلمية وتحيل بالأحرى على أطباء (موليير) MOLIERE. ولم يكن لدى (كلود برنار) CL. BERNARD. وكذلك عند (باستور) PASTEUR من هم شاغل سوى شرح اكتشافاتهم بوضوح.

الواجب الثاني: الأمانة. ينبغي على المؤرخ أن يصدق قارئه فلا يحاول أن يخفي ثغرات توثيقه، ولا يقين براهينه. وإن حواشي أسفل الصفحات ليست تمريناً متكلفاً لسعة المعرفة. إنها تقدم للقارئ الأدلة على وجهات النظر

المعروضة، وتتيح له احتمال التحقق. ومن شأن ثبت المراجع أن يشير إلى الأعمال الاخرى المتصلة بالموضوع.

الواجب الثالث: الموضوعية. إن مايدفع المؤرخ هو طلب الحقيقة الماضية. ولذا ينبغي عليه الإقبال على دراسة الموضوع دون أحكام مبيته أو إنحياز. فالموضوعية هي القاعدة المطلقة. وإن كانت لانتحول في الوقت ذاته دون العاطفة. ومن النافع بهذا الاعتبار قراءة الصفحات التي كتبها (بيير رنوفان) P. RENOUVIN. في كتابه (تاريخ العلاقات الدولية) عن أصول حرب 1914 الحرب التي أفقدته ذراعه. إن عرّضه يتحلى بموضوعية تامة.

الواجب الرابع: التجديد. على المؤرخ ألا يقتصر على إعادة نسخ ما قال أسلافه. عليه ان يأتي بالجديد في توثيقه، في الأنوار التي ينير بها الموضوع، في اللاحاح على أشخاص غير معروفين كثيراً. مافائدة كتاب جديد عن (لوكريس بوجيا) L. BORGIA. إذا لم يأت على الأقل بقراءة جديدة لمصيرها؟

الواجب الخامس: التشويق. على المؤرخ أن يُعنى دوماً بالقارئ وأن يضع نفسه موضعه ويتساءل هل سيكون مهتماً بما يكتب، وذلك دون مساس بدقة برهانه.

ينبغي على المؤرخ أن يكون خادماً للحقيقة مع إحترامه قارئه القادم.

الفصل العاشر

التسويق

1 - مايمكن جنيه من التكوين التاريخي

علينا ألا ننسى أن التكوين التاريخي الجديد قد يعود بخير كثير: فالتاريخ على مستوى معين - ينمّي جودة المحاكمة (يستطيع المرء تمييز مايريد قوله وترتيبه)، والجّد (يحذر المرء مما لاتدعمه الوثائق)، وقدرة تحليل الوضع بحدوده حقيقية (يستطيع المرء الوقوف على مبعده من الحادث)، والروح الانتقادية، وفضول البشر، وتأثير الأهواء والمصالح، وحس النسبي (يترتب على المؤرخ الجيد أن ينظر إلى الأشياء نظرة مرنة). ومن المعلوم أن ذلك يشكل خصالاً فكرية ناصعة في المشروعات، وفي الإدارة (يجب على الدبلوماسي التزود بتكوين تاريخي متين، وذاك على الأقل ظل هو الراي الدائع حتى في سنوات 1960): ماأن نحتاج إلى من ينهض بالتعميم في إحدى المؤسسات حتى يكون كل المؤرخين محلاً متميزاً لأنهم مبدئياً - حين يحفظون بتكوين ذكي ويتسمون بالشخصية - اناس قادرون على الملاحظة، وعلى تحليل الوضع، وعلى ضبط أحكامهم، وهم يملكون شعوراً حياً بحركية الأشياء. والمؤرخون يصلحون (مستشارين)، (مراقبين) ناجعين، ومديري مكاتب وزراء حاذقين. إنهم يتحلون بجرعة المرونة وبالارتياح الضروري لأنهم - كما يقول (سان ريل) SAINT REAL - «درسوا الحوافز والآراء والأهواء البشرية

فادركوا دوافعها وحيلها وموارباتها واخيراً كل الأوهام التي تبعتها في القلب»^(*). ثم ان المؤرخ يضيف (زيادة) مهنية: كذلك يجب عليه إبان تكونه أن يسهر بعناية على خصص هذه الخصال الفكرية (لاشيء أكثر خطراً من تكوين اناس مذهبين، عقول ملغومة، متحيزين تعوزهم الروح الانتقادية). ومثلما كان (البرت سوريل) A. SOREL يقول سنة 1896 - وهو يدرس التاريخ الدبلوماسي في (المدرسة الحرة للعلوم السياسية) - (إن تعليمنا لن يؤتي أكله، ولن يقدم ثماره إلا في وقت لاحق، عندما يترتب على تلاميذنا الذين تتلقفهم الحياة العملية الاجابة عن أسئلة، بل حل مسائل، وهم مضطرون إلى أن يحكموا بأنفسهم وأن يقرعوا وان يعثروا في ذاكرتهم على المفهومات، وفي عقولهم على النبايع التي بها يكون رجل العمل): إنها مبادئ حكيمة كان من الواجب أن توجه اولئك المكلفين بتكوين مؤرخين ممن لا يريدون أن ينتجوا مجرد «اساتذة».

2 - مهن التاريخ

على المرء أن يجيد حساب مواهبه: فمن يشعر بتذوق التاريخ، من يتحلى بموهبة المؤرخ، ينبغي عليه أن يجيد اختيار مهنته، منزلته. ينبغي أن يتنبأ بقواعد اللعبة، وأن يتجه داخل عالم معقد، وان يحرص على وضع الفرص كلها إلى جانبه. وعليه، بوجه خاص - ولو أهمل ذكر ذلك - أن يملك بعض معارف إضافية: معلوماتية (لجميع مهن المؤرخين)، لغات أجنبية (ينبغي أن يتكلم المؤرخ لغتين أو ثلاثاً، وأن يكون قد أقام بعض الوقت في الخارج)، تقنيات سمعية - بصرية (إن اجادة الكلام اليوم في الاذاعة، في التلفزة، أمر ضروري لكل المهن،

(*) ينبغي التفكير في مكانة التاريخ - والتاريخ الإداري والسياسي - في تكوين الإداريين، ولا سيما معاهد الدراسات السياسية. وقد فطنت مدارس الإدارة إلى ان غياب التكوين التاريخي أو الحامئة التاريخية - قد يكون ازعاجاً في ممارسة تلاميذها لمهنتهم لضآلة استعداداتهم ليكونوا «تعميمين». (إن مدرسة البوليتكنيك) تسعى اليوم إلى تنمية مقرراتها التاريخية (ولا سيما في تاريخ العلوم).

وتلك مادة بدأ تعليمها في بعض المدارس^(*) ثم عليه أن يملك الإدارة (ينبغي أن يمتلك بعض القدرات الإدارية، فالمؤرخ هو غالباً مطالب بإدارة، بتحضير، بتنفيذ موازنة، بتحرير برنامج^(**)) لن يعرف كثيراً كيف يختار مهنة: ليس ثمة لائحة موجهة، غالباً يسترشد بالبصيرة، بـ معلم، باستساغاته الشخصية (ينبغي على مؤرخ الفن امتلاك إحساس وتذوق الرسم)، وأيضاً يسترشد بالصدفة: لكن ينبغي أيضاً أن يرى «سلاكة» (مع اختيار المدخل، مع تنمية الاحتراف، مع درجة المناقشة في الدخول إلى المجموعة) وفهم أن «المهن» تتبدل بالضرورة؛ ينبغي الاهتمام بالسكانة (علم إحصاء السكان) وفي مستقبل القطاع^(***): مثال ذلك إننا سنحتاج دون ريب من الآن حتى سنة 2000 - 2010 الى مؤرخي لفن المتاحف، للتراث، للتعليم - ولكن هذا (الخط) أعقد، وهو يفترض توافر (موهبة)، موهبة غير رتيبة، وحيث المنافسة حادة. وكذلك فإن السمعى - البصري (انظر فيما يلي: المهن الجديدة) سيحتاج إلى مؤرخين، ولكنها (مهن) جديدة تماماً، مهن تمر بطفرات قوية، وإن (ممارسة المهنة) ليست بالامر اليقيني. وقد نحتاج في العشرين سنة القادمة إلى مؤرخي علوم في مدارس المهندسين، ولكن ذلك يشكل مهنة خاصة، صعبة جداً. ومن المحال وضع قائمة بالمهن التاريخية.

ولكن لنقدم بعض الاشارات الوجيزة^(***).

(*) - مثال ذلك في (مدرسة التراث) سنة 1989 - 1990 : ينبغي على محافظ متحف أن يجيد عرض تنظيماته في الاذاعة أو التلفزة المحلية.

(**) يتوجب أيضاً التأكيد على تعليم الإدارة الذاتية.

(***) حول هذا التقدير لتطور القطاع، انظر المدارس التاريخية، ص 117 - 119

(****) ينبغي ألا يقتصر اهتمامنا على التاريخ العام، بل يجب أن يشمل تفكيرنا التاريخ التقنية أو المستقلة التي كان معدل النمو فيها مرتفعاً في الغالب لأن التكوين لما يبلغ حداً كافياً ولا اختيار العناصر الجديدة في الماضي (انظر: المدارس التاريخية، المصدر المذكور ص 77 ومايلي).

1 - مهن قديمة

1 - التعليم العالي(*) : إننا، على ما يبدو، سنحتاج منذ الآن وحتى سنة 2000 - 2010 حاجة عظمى للمعلمين إذا ما طبق برنامج توسيع الجامعات. ولكن المهنة تتعرض إلى أن تكون أبطأ إذا كان اختيار العناصر الجديدة حاشداً، وخضع الاصطفاء لقواعد معقدة لا يتضح ادراكها دوماً إلا بعد الانضمام إلى السلك (سيكون دور الاعمال المنشورة آخذاً بازدياد مطرد بفضل اصلاح (سافاري) SAVARY ودرجة التأهيل): يجب على المرء اختيار منزلته - ومن العسير جداً تغيير اختياره فيما بعد، تغيير مجاله - إجادة اختيار (مشفرة)، التفكير الجيد فيما سيكون حال العلم بعد (س) سنة، الامتناع عن السير (حيث يذهب الناس كافة) (إن روح القطيع خطرة - ألا إن المهنة ملأى بالأشواك، والمرء يأتيها متأخراً**)، ولا بد من الرضوخ لتقديم كثير من التضحيات الشخصية*** - ولكن المهن الحرفية أو الادارية تنكشف عن العبوديات ذاتها.

2 - البحث: إن عمل الباحث وقتاً كاملاً في (المركز القومي للبحوث العلمية) CNRS - أو في معهد البحوث - عمل بطيء بالضرورة، وإن عدد المناصب ضعيف (89 ملحقاً ومكلفاً البحث في التاريخ الحديث والمعاصر سنة 1985 و 15 معلماً ومشرفاً على البحوث)، والولوج صعب (يجري الاختيار بالمسابقة الآن)، وآفاق التقدم تبقى محدودة (ينبغي فوز المعني بان يُعترف به

(*) اننا ندع جانباً هنا التعليم الثانوي الذي يحدد وقتاً قليلاً للبحث في الغالب، ولكنه يجلب الطمأنينة، وإن اختيار العناصر الجديدة كان ينبغي أن يكون ضخماً في سنوات 1991 - 2000.

(*) لقد ابان (دانييل روش) انه من بين (351) استاذ أُصِيل سنة 1983 كان يوجد فقط 24 ممن كان عمرهم أقل من ثلاث وأربعين سنة. وأنه بين (615) محاضر يوجد فقط أقل من الثلث ممن كان عمرهم كذلك أقل من ثلاث وأربعين سنة. وبذا يتضح أن العمل في المهنة بطيء - وأن الشيخوخة في سلك المؤرخين في هذا التاريخ كانت مرتفعة (انظر: المؤرخون اليوم.. القرن العشرون 1986 ص9).

(**) - انها مهنة تستلزم الكثير من الوقت.

باحثاً جيداً). ويترتب على الباحث من حيث المبدأ ألا ينقطع عن التدريس، بل يجب عليه السعي لنقل معرفته: وهذا ليس بالسهل دوماً. يجب تحذير الشباب من بعض سراب البحث، وهو درب ضيق جداً في الغالب.

3 - مهن التراث: لقد تبدلت قواعد اللعبة قليلاً عند إحداث (مدرسة التراث)^(*) وهي تضم العمل في المتاحف، والمحفوظات، وجرد الآثار، وفي الأوابد التاريخية، وفي المكتبات التراثية. وهذه مهن تتيح الفرصة لازدهار مهنة المؤرخ، ولكن لكل مهنة منها عبودياتها (والامر ينتهي في الغالب إلى القيام بعمل اداري بالدرجة الاولى). وان الوصول إليها صعب (يجب في الغالب متابعة دراسات طويلة، النجاح في مدرسة شارتر)^(**) وقد كانت ممارسات المهنة الى الآن مخيبة للآمال، وأحياناً يكون العمل صارماً ويستلزم مواهب تنظيم وأمر (إدارة متحف، تنظيم معرض، كل ذلك يفترض توافر سجية حازمة).

2 - مهن جديدة

لننظر الآن إلى لَمْعِ مهن جديدة من شأنها أن تقدم خلال العشرين سنة القادمة فرص عمل ذات شأو إلى المؤرخين الشباب الذين سيقبلون بذل الجهد من أجل التكيف الضروري.

1 - الصحافة: التاريخ دراسة تمهيدية جيدة لولوج مهنة الصحافة. وقد يكون التكوين التاريخي الجيد نافعاً جداً لولوجها (من ذلك الصحافة الدبلوماسية، الاقتصادية)، ولكن صحافة الأفكار تبدو جد مهددة اليوم (قد لا يجد أمثال بانفيل BAINVILLE أو كاكسوت GAXOTTE مكاناً لهم بعد الآن).

(*) مرسوم 14 أيار 1990.

(**) ECOLE DES CHARTES

2 - النشر: انها من المهن الآخذة بالتطور الكبير حيث تشتد الحاجة إلى اناس جيدي التكوين في الفروع التاريخية، بيد أن المنافسة شديدة، والاستقرار كبير. وعلى الرغم من ذلك يمكن لإحداث تأثير قوي على البحث: فالناشر ينهض بدور مدير على نحو مطّرد في تطور العلوم، وفي توجيه الانتاج. إنه يدرس أذواق الجمهور، ويقدم (الطلبات) إلى المؤرخين، ويستطيع تشجيع التجديد، فهو مسدّد المنحى.

3 - السمعى البصري: مهن تنمو بسرعة: مستشار تاريخي لفلم أو لفلم تلفزيوني، عالم توثيق ومحفوظات، بل ومنتج أيضاً. ولكن هذه المهن تفترض توافر معلومات تقنية جيدة؛ انها مهن تقع في تقاطع الصورة، والتاريخ، والحوار الأدبي والمحفوظات: إن قطاع تاريخ الإعلام الجماهيري كان محكوماً بالنماء السريع من جراء جوع الصور والأقنية الأوربية، ولا مناص من تكوين سريع لاختصاصيين في هذا المجال، ولكن من الضروي التحلي ببعض المواهب: معرفة كتابة سيناريو، إمادة اللثام عن أذواق الجمهور والتكيف معها، تقديم فلم والتعليق عليه، أو عرض وثائق منسية والعثور عليها، أو الاسهام في (انتاجات اورية)، كل ذلك ليس بالمهنة السهلة. لقد فتح (مارك فرو) (الدرب في مسلسلات تلفزيونية تستخدم اشرطة الأخبار. ونحن نذكر كذلك الاذاعات الشهيرة لمسلسل (الكاميرا ترتاد الزمان) لـ (آلان دوكو) A. DECAUX. و (أندره كاستلن) A. C. ASTELOT أو مسلسل (حضور الماضي) لـ (جان شيراس) J. CHIRASSE لقد كان (لوكوف) LE GOFF مستشاراً تاريخياً لفلم (آنو) ANNAUD وعنوانه اسم الوردة. وكان (جان تولار) J. TULARD المستشار التاريخي لـ (الثورة الفرنسية) وهو فلم الاحتفال بمرور مائتي عام.

4- تاريخ المشروع: إننا نشاهد نمو خدمات تاريخية في المشروعات الكبرى (وقد مهد سبيلها بونت. آ. موسون) (PONT - A - MOUSSON). وإن (جمعيات) أو (مكاتب دراسات) التاريخ تنمو لتقديم خدماتها، انتاج فلم، تأليف كتاب ذكرى مئوية، القيام ببحوث في المحفوظات (أو المساعدة على تصنيفها)،

تنظيم معرض^(*): الهندسة التاريخية مهنة جديدة كل الجدة فيما يبدو^(**). اننا لما نعرف بعد أية أشكال سيأخذها تاريخ المشروع هذا (وهو يتبع إلى حد كبير الرعاية الثقافية)، ولكن المشروعات - مثل الادارات - تهتم بأطراف بذاعتها، وتحاول العثور على جذورها، تحاول صنع (ثقافة المشروع)، وينتهي الأمر بالمؤرخين بأن يصبحوا مستشارين ثقافيين للمشروعات الكبرى. وثمة مهنة أخرى تظهر: مهنة القائم على المحفوظات الشفهية المكلف بجمع المحفوظات الشفهية، وملابس الحياة والذكريات المتصلة بالمؤسسة أو الجماعة (مهندسو المعادن أو عملاء صرف النقود): وذاكم درب واعد جداً^(***).

5 - مهن (محلية): من المتوقع خلال العشرين سنة القادمة نمو مهن محروكي^(****) المؤسسات الثقافية، الاذاعات المحلية، مستشاري الاتصالات للجماعات - المحلية، لمديري ادارات ثقافية، لمستشارين في (التنمية الثقافية): انها مهمات تفترض توافر كثير من التخيل ومن القدرة الابداعية، ولكنها تفترض كذلك تكويناً تاريخياً متيناً^(*****).

(*) انظر: «التاريخ والمشروع» - جريدة لوموند 23 آذار 1990 ص 39 - 42 وم. هامون M.HAMON وف. تورث F. TORRES: ذاكرة المستقبل - التاريخ في المشروع 1987.

(**) انظر بصدد الهندسة التاريخية: نشرة التاريخ والكهرباء 1990 (العدد رقم 14 - 15 ص 149 - 153).

(***) انظر (ج. كاريي) J.CARIETY إحداث محفوظات شفهية، المجلة الإدارية 1988 ص 563 - 567. لقد أحدثت السيدة (فلورنس ديكامب) F.DSCAMPS سنة 1989 تعليم تقنية المحفوظات الشفهية في (المدرسة العملية للدراسات العليا) (القسم الرابع).

ANIMATEURS (****)

(****) الهندسة الثقافية هي في سبيلها إلى النمو، وإن الجماعات المحلية ستتنق قريباً على الثقافة ضعفي ماتنفقه الدولة أو أكثر، وإن «الاستحقاقات الأوربية ستري زيادة المؤسسات الثقافية اللامركزية وخاصة بدافع الاقاليم والمناطق» (ث.مولار) C.MOLLARD : وهذا مايفترض بذل جهد ضخم في التنمية والتنظيم والبرمجة وتكوين مختصين بالإدارة.

إننا ندرك أهمية هذه المهن الجديدة: ولكن بعضها مازال يحبو والمنظر العام بعيد جداً عن الاستقرار، ولكن ثمة نقصاً لاشخاص يتحلون بالمعارف وبالقدرات الضرورية - التكوين التاريخي جيد يمنح ضمانات لأرباب العمل. وليس من السهل دوماً أن يبرهن المرء على جدارته، أن يحظى بالاعتراف به، وإن نصيب التجديد والابداع نصيب كبير: مثال ذلك كيف ننمي العمل الثقافي لفريق كبير من الناس في مجال التراث، والمتاحف، وحماية المواقع المهمة، وإدارة المحفوظات المكتوبة والسمعية - البصرية، وحفظ (الذاكرة) (*)؟ كيف ننمي اذاعات من مستوى علمي جيد عن تاريخ التصوير أو تاريخ فن المعمار - في مسلسل تلفزيوني، بينما يفترض من الناحية التقليدية (دون برهان) أن (ذلك لا يثير اهتمام الجمهور)، وأن المنتجات كانت الى اليوم تافهة - إلا فيما ندر - ؟ كيف نقدم للتلفزة، للتعليم الثانوي، للأعمال الثقافية في الأقاليم وفي الخارج معرض صور بيانات سمعية - بصرية (أفلام، أشرطة فيديو، اقراص سمعية رقمية)؟ تلکم هي أسئلة صعبة لما تحل لغياب التفكير المذهبي، والاستثمارات الفكرية....

(*) يعوز المجتمعات المحلية في الغالب مستشارون ثقافيون قادرون على تأمين انساق هذه الأعمال. وإن عقود الخطة بين المدن وبين وزارة الثقافة تتنبأ باختيار محكمي تراث، ولكن المهنة سيئة التحديد (ماذا يعني ابراز أهمية تراث؟ هل ينبغي الاقتصار على التراث المعماري؟).

الفصل الحادي عشر

توقعات المهنة

لا شيء يفوق خطراً محاولة الحديث عن مستقبل مهنة: كل شيء يتطور بسرعة، والمنظور يتغير، وقد تصاب صورة المهنة سريعاً بالتشوه. ان المؤرخ المتخرج سنة 1992 سيبقى استاذاً حتى سنة 2035 وربما ثابر على (الانتاج) حتى سنة 2050 : ومن الممكن قياس الفوارق^(*). ولكن التفكير في مايتغير أو سيتغير، أمر ضروري: لاننا نرى بذلك على نحو أفضل الحدود، الفجوات، الملاحظات التي تكتنف الأعمال الراهنة. ولقد تغيرت مهنة المؤرخ تغيراً كبيراً منذ ثلاثين عاماً، ولا مناص من أن تطالها ايضاً طفرات مهمة.

1 - عوامل التطور

ليس ممكناً، على ما يبدو، إغفال العامل السكاني: سيكون لدينا تاريخ بلد شائع سكانياً، وهذا لن يخلو من عقايل^(**). فمعدل تجدد المؤرخين سيكون

(*) انظر بصدد مستقبل التاريخ: المدارس التاريخية - المصدر المذكور ص 106 - 120
 (**) سيزداد عدد المتقاعدين (اطباء، اداريون، مهندسون، قضاة) الذين «سيكتبون في التاريخ»، سينخرطون في بحوث تاريخ تقني، وربما وجب الإعداد لهذا التطور، وأن نقيم حلقات بحث اطلاعية في التاريخ لهؤلاء المتقاعدين الذين يملكون معرفة تقنية ثمينة.

أضعف (وقد رأينا سلفاً بين سنتي 1920 - 1940 نتائج شيخوخة سكانية في مجال العلم^(*)).

ولكن بعض عوامل التطور جديدة بالتفكير:

1 - الوسائل المادية: يتعرض جهد الدولة في نطاق البحث التاريخي لخطر الانتقال من القطاع الجامعي إلى المؤسسات الثقافية (تراث، آثار). والتطور جلي سلفاً (لم يُنظر إلى TGB البتة على أنها مؤسسة علمية كبرى، كما كان شأن المكتبة الوطنية). ومن جهة أخرى، إن مطالب (التخطيط) في الدولة عرضة للازدياد، وهذا أمر خطر على معدل التجديد دوماً: وإن خطر اخضاع البحث للبيروقراطية خطر بديهي. وقد كان (لوي روبرت)^(**) L.ROBERT سلفاً سنة 1965 يهزأ متفكهاً من المزاعم البيروقراطية الرامية إلى توجيه كل شيء، وكان يفضح خطر تطبيق قواعد العلوم الدقيقة على البحث التاريخي: «أما أن يأتي (تيودور ممسن) TH.MOMMSEN وهو مؤرخ لغوي، وحقوقى، وعالم بقراءة الكتابات القديمة، وعالم مسكوكات، بآثاره لنشرها، لنشر دراسته عن حق الترف، عن حق الجزاء، فتمتة خطر مائل في أنه في وقت قريب، أو غداً، في ضوء انتشار الوثوقية (على مستوى العلم)، (داخل إطار عمل الفريق) قد يُرفض بحثه الذي سيوصف بأنه (فردى)، وقد أصبحت هذه الصفة أشبه بتحقيق حين تطلق على عمل علمي وسيقال له: أستاذي العزيز، ألا تلاحظ بأسف أن إسمك لا يوجد في البرنامج الذي أعدته آلاتنا والعاملون فيها منذ خمس سنوات، ولإعداد ذلك عهدنا إلى فرق عمل من متعهدينا. أجل، إما أن يشكل بعض المخبرين الصغار (لنستعمل لغة العلوم الدقيقة) وأحدهم سيكون مختصاً بقراءة الكتابات القديمة، والآخر بعلم الأختام، الخ، وهم سيكونون عازمين على ألا يعرفوا شيئاً سوى ميدانهم الصغير، أنهم يشكلون فريقاً،

(*) يبدو أن ثمة تدهوراً في المدرسة التاريخية الفرنسية بين سنتي 1920 - 1940 (وهذا يفسر غضب أمثال لوسيان فيفر).

(**) في خطاب في مجمع النقوش والآداب.

مجموعة عمل، وعندئذ سينساب إلى قلب مخططي العلم شعور نشوة، وذاك هو كنز لمن سيحظى بالأولية، وسيكون الأمر أفضل إذا صرح الباحثون الجدد بأنهم لا يريدون العمل بأيديهم ولا بأدمغتهم، وأنهم يطالبون بالآلات، لا بالآلات راقنة وحسب، بل آلات قراءة وتفكير^(*).

وغير خاف أننا من خمس وعشرين سنة رأينا النتائج السلبية لهذه المطالب البيروقراطية - ومن المحتمل أن هذه النزعة - في أحسن الدرائع - الرامية إلى نفي الفرديات، إلى تسوية البحث، تتعرض كثيراً إلى أن تنمو في العشرين سنة القادمة، مادامت الإعتمادات المالية تتضاءل.

2 - الوسائل التقنية: من الواجب أن نرى نمو منظومات معلومات غنية (بنوك المعطيات الثقيلة)^(**)، إمكانات نسخ الوثائق (لقد غيّر الناسوخ جزئياً شروط العمل، مبتكرات تقنية - ومثلاً في مجال نقل الوثائق عن بعد^(***) - لا بد

(*) كان (لوي رويس) يهزأ أيضاً من الأتعة العلمية الجديدة: «تنزع العلوم الانسانية - لانهم دفعوا بها في هذا الاتجاه - إلى قبول بعض الأتعة العلمية، أعني قناع أو طاقية العلوم الدقيقة. إن الأمر الأساسي في المركز القومي (للبحث العلمي) هو هذه العلوم الدقيقة، فقد ألبسونا لباساً غريباً عن لغتها. اننا نلقى بلاغات تتصل «بمخبرنا»، واستبانات عن بحوثنا المتفق عليها بالعقود». يتصورون «فرق عمل» بحسب النموذج فرق عمل المخابر، أو بعض المخابر؛ والكتب هي جملة «توثيق». وعندنا «مهندسون» يؤلفون مثلاً ثبوت المراجع اللغوية الثمينة اللازمة، وذاك عمل عادي جداً للمهندسين الذين نعرفهم في الحياة الجارية. ويبدو ان هذه الأتعة لامندوحة عنها. وإن تنظيمات واصلاحات قد تكون نافعة في العلوم الدقيقة صارت تُطبق بحذافيرها على العلوم التاريخية واللغوية. إننا أشبه بزايدة صغيرة ملحقة بالعلم الكبير. وهم مستعدون لاعطائنا موجات (أفكار غريبة) وحاسب أكثر من المكتبات عامة؛ ومنذ 1965 زادت سيطرة الشر ... ولا ريب في أن يوماً آتياً سيفرض التفريق التام بين العلوم الإنسانية والعلوم الدقيقة، وإحداث تنظيم مستقل أكثر مرونة و «أذكى» لصالح العلوم الأولى.

(**) انظر ج. كاريتي J. CARITEY مصارف المعطيات المرتدة، المجلة الادارية 1988 ص 379 - 382.

(***) العمل يتغير كثيراً عندما يستطيع المرء الحصول فوراً على نسخة مقال أو وثيقة.

أن تتدخل)، وسائل إستغلال المعطيات معلوماتياً. وفي بعض القطاعات، تتطور طرائق العمل بسرعة^(*)، ولكننا ندرك تماماً حالات التردد، والتلمس (لقد تحسنت تقنية الطباعة تحسناً ضخماً، ولكن هذه التسهيلات لما تبلغ بعد تعدد مجموعات النصوص^(**) أو منسوخات الوثائق الأساسية).

3 - (رابطة المؤرخين)^(***): إن تفجر (الرابطة) بين مشارب شتى، لغات، مدارس، فرقاء، يحتاج إلى المتابعة. وإن الجَيْشَان فرصة التاريخ، وقد كان يترتب على، ثقل التاريخ الإيديولوجي، مذهب سنوات 1950 - 1970 أن يمضي متضائلاً (المؤرخ الذي تخرج حوالي سنة 1970 سيمارس مهنته ويكون له «تلاميذ» حتى عام 2015). لقد ولّى زمان المذهبية الاقتصادية المنتصرة، والتاريخ الاجتماعي بحاجة شديدة إلى زعماء، وقد وجب اللجوء إلى إعادة التصنيف، إلى مراجعات، إلى تبديلات، إلى مزارعات، وكذلك إلى (لانتشيس) - وقد بدئ به منذ 1981 - 1983 - ونحن نرى اليوم بوضوح ارتباك بعض المؤرخين. وغير خاف أن هذا (الانتشيس) - الذي ينبغي أن يؤدي أكله تماماً سنة 2000 - 2010 - يغير بالطبع صورة المهنة تغييراً طفيفاً: ألا يبقى المرء (استاذ حقيقة) أمر لا بد له من بعض النتائج. وإن الإحجام عن الاستمرار في خلط التاريخ باللاتسامح، التاريخ بالعمل السياسي، التاريخ بالمنطق (لقد أبان (ج.ف. سيرنيلي) J. F. SWIRINELLI بصدد العرائض كيف كان هذا التقليد راسخ الجذور تماماً) يتيح بالضرورة تغيير الصورة وكذلك تغيير الممارسة (لقد لوحظ سنة 1989 - 1990 مدى غياب المؤرخين عن تفسير أزمة أوربة الشرقية: إنهم لم ينبسوا تقريباً ببنت شفة)^(****). ولعلّ من الأسهل الوثوق بصورة مؤرخ يعلم

(*) بنوك الصور ستساعد كثيراً مؤرخي الفن وستكون عالمية.

(**) انظر ج توليه بصدد مجموعات الوثائق في: التاريخ الاقتصادي والمالي - دراسات ووثائق (1989 ص 399 - 404).

(***) انظر فيما تقدم: التاريخ الإيديولوجي.

(****) وذلك نتيجة - بيئة - لتراجع التاريخ الدبلوماسي في سني 1960 - 1990. ومن الجائز افتراض أن حوادث 1989 - 1990 وحقيقة اللااستقرار الحاضر اليوم ستتميّح تذوق التاريخ الدبلوماسي لدى المؤرخين الشباب وستوظف «مواهب».

الريية، يعطي التذوق النسبي، ويحضر على التسامح (هذه الفضيلة التي يحتاج إليها المجتمع اليوم أشد الحاجة) - ولم تك هي حال مؤرخي سنوات 1950 - 1980 - أو أيضاً صورة مؤرخ قادر على الاصغاء للناس، وعلى الإجابة عن قلقهم حول جذورهم، أصولهم ... مؤرخون أقل نضالاً، أقل عدوانية، أقل انغلاقاً: وذلك تطور محتمل.

1 - نتائج

لننحصر بإيجاز مثل هذا التطور:

التطور الأول: يترتب على «مهنة» المؤرخ أن تتحرك: فالمرء لم يعد يعمل على منوال أعوام 1950 - 1960 . بل إنه اليوم أحوج، وأكثر انتباهاً للنص، لسعة المعرفة، أكثر إحساساً بالشكل: ومن البين أن هذا المستوى من المطالب - وهو مستوى باق على الرغم من 1968 وعلى الرغم من الغوايات المذهبية (البنوية) أو المعتمدة على الإقتصاد القياسي - لابد وأن ينمو نمواً كبيراً، ويترتب على المؤرخ أن يستزيد من البحث بأطراد عن مؤلفات يفهمها الجمهور الكبير .

التطور الثاني: يترتب على التاريخ أن يغدو تقنياً على نحو أعظم من جراء انهيار الإيديولوجيات وتقهر الحتمية والماركسية المنتشرة التي كانت قد شوّعت - إن جاز القول - قسماً من الإنتاج التاريخي (لقد رأينا بوضوح الذكرى المئوية الثانية للثورة): تشهد على ذلك تماماً الأزمة الظاهرة للحوليات، أزمة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي . إنهم يسعون لتعقيد التاريخ، لإعادته إلى لاحتمية، يميلون إلى إعادة اكتشاف دور الأفراد، والخط، وإلى احتمال (التفاسير البسيطة والنهائية)، إلى (التموجات) العلمية المزعومة، إلى أحلام التاريخ الشامل. ونحن ندرك بوضوح، سلفاً، هذه الصنوف من التطور التي قد تحدث ضد (الجامعة)، والجامعة دوماً لا تستطيع اللحاق بالركب، وتتميز غالباً بصلاية قوية (مثلاً تاريخ التقنيات - أو تاريخ الطب - وهما يواجهان أكبر عنت يحول دون نموها في

الجامعات)، أو أنها تقاوم بيرة تكبر أو تصغر (لقد كان كثير من الناس غير حذرين في كتابتهم، ويرتب عليهم، عاجلاً أو آجلاً، الخط من شأو كتلة كبيرة من الإنتاج التاريخي ذي المضمون الايديولوجي المسرف، ولكن المؤرخين عرق رهيب، سيستطیع هذه اللعبة أیما استطابة). سيكتشف تاريخ الفن، تاريخ الموسيقى، ستنمى التواريخ الاختصاصية (ذات الاستقلال الذاتي) - تاريخ الجسد، تاريخ الأشياء، تاريخ الحياة اليومية، النساء أو تاريخ الألم... وكذلك سيكون المؤرخ مضطراً إلى حساب جهوده حساباً أفضل - إلى التكيف، إلى التجديد: إن التواريخ التقنية تفترض استثمارات سابقة، معلومات تقنية معمقة (إن احداً لا يستطيع كتابة تاريخ جدي للمرض النفسي دون التحلي ببعض معرفة دقيقة، ودون قراءات ضخمة^(*)). ولعل المهنة تصبح أقسى، وأشد قسراً، وأكثر إزعاجاً: سيفكر المرء على نحو أكبر قبل أن يكتب (أو يستنتج)، سيكون مضطراً إلى إهمال المعماريات المذهبية التي كانت ضئيلة التكلفة من حيث التنقيب في المحفوظات، لن يحاول تفسير كل شيء (الأمر الذي يرجع بالمعنى الصحيح إلى الشعبة أو إلى التضييل)، وستكون المنافسة بين المؤرخين أعظم، وأخطر (العمل جماعة كان يؤدي إلى خلق بعض ريع الموقع)، والمرء سيكون أقل ثقة بمعلوماته...

التطور الثالث: قد لا يكون المؤرخ مؤرخاً وحسب، بل كذلك - إن كان موهوباً - يكون صحافياً، منتجاً تلفزيونياً، مستشار (الأمير). انه تطور ضروري بلا ريب، وستكون له اصداء على ممارسة المهنة (إنه، عندما يغادر مكتبه، قد لا يرى

(*) الحق ان التاريخ الاقتصادي، من أجل اجادته، كان يفترض، هو أيضاً، توافر معلومات جيدة في الاقتصاد السياسي، وفي إدارة المشروع، وفي التقنيات المصرفية وأعمال البورصة، وفي الحقوق التجارية، وفي المحاسبة: ولكن هذه الاستثمارات التمهيدية كانت نادرة، وكان بعض المؤرخين يجهلون كل مايتصل بمبادئ الاقتصاد السياسي ونظرياته الجديدة.

الأشياء على النحو ذاته. انظر فيما بعد: الخاتمة). ولعل من الواجب إعداد العدة لانفجار المهنة الملمع إليه، أن نكوّن لهذه الأدوار الجديدة^(*)، وهي تمضي على ما يبدو لترتيبات مختلفة لانكاد نتصورها (ونحن ندرك سلفاً الافتراق - الخطر أحياناً - بين المؤرخين «الإعلاميين» وبين الآخرين).

لنميز إعتسافاً بضعة عروق من المؤرخين: واسع المعرفة (الاختصاصي)، السياسي (خريج الأركان أو النقابي)، الاتصال. ان الافتراق غير حاسم، ولكن من النادر أن يتحلى الاتصال هو أيضاً بسعة المعرفة: إنها (مهن)، (وظائف) تستلزم مواهب مختلفة. ونحن ندرك أخطار التقهقر، التشوه، الانحرافات في كل فئة من هذه الفئات. فإذا عمدنا إلى التفكير في سياسة التاريخ (مثلما كان بول لوبليوت يتمنى في الماضي) أدر كنا أيا ن ينبغي أن نتجه. علينا:

- أن نساعد واسع المعرفة مساعدة منهجية، نمنحهم بسخاء الوسائل الضرورية لأنهم هم الذين يذودون عن التاريخ على المستوى الدولي، وان دوائر التخطيط - مثل مطالب النشر - تنزع إلى كبهم (كيف نطبع كتاباً لن يقرأه في البدء سوى مائة قارئ، ولكنه سيبقى مستعملاً بعد خمسين عاماً؟)^(**)

- دعم التكوين الفلسفي للمؤرخين، تنمية حسهم الفلسفي (وتلك مسألة أساسية في العلم)^(***)، تنمية التفكير الاستمولوجي (وهنا توجد فجوة مؤسفة).

(*) لاشيء أخطر من الإرتجال في هذه المهن الجديدة: ليس من السهل كتابة سيناريو لأفلام تاريخية.

(**) اذا مضينا على هذا المنوال وجدنا خطراً أكيداً لزوال منشورات سعة المعرفة بكل ابهتها النقدية واذن فئمة انخفاض المستوى الدولي للبحث الفرنسي.

(***) المؤرخ يعيش في اغلب الأحيان من كسبه.

- العمل بجميع الوسائل على تشجيع معدل التجديد^(*)، مراقبة تطور الابحاث في الخارج^(**)، تشجيع مسددي المنحى، الموقظين، حاشدي المواهب، ومنحهم الوسائل.

- اجتناب عقايل سيطرة (السياسات) التي بالغت بدورها في سنوات 1960 - 1990 وحاولت (مراقبة) البحث بأكثر من تنميته.

- مساعدة الاتصاليين بدعم جهودهم الرامي إلى توسيع منزلة التاريخ في وسائل الإعلام الجماهيري وفي تكوين مؤرخين شباب أنضر عوداً على هذه التقنية الجديدة^(***). هكذا تنضح - الخطوط الاولى - لتطور هذه الأدوار أو (الوظائف):

ولكن الأفضل هو أن يعي المؤرخ الشاب أن عليه ذات يوم أن يختار، وأن كل منظومة من هذه المنظومات تنطوي على شيء من اخطار التشوه...

التطور الرابع: ينبغي الحذر من امرين، الاحتكاك واللاتسامح وقد رأينا مساوئهما في هذه السنوات الأخيرة. ومن المعلوم أن مهنة المؤرخ، ولا ندرى لماذا، تستثير نتائج الاحتكار، وتحض على اللاتسامح، ويجب الحذر دوماً من هذه الخطيئات التقليدية. اللاتسامح عرضة كبيرة للزيادة. لنقرأ مرة أخرى (جريمة سلفستر بونار) مما كان يثير أكبر الحنق لدى (مارك بلوخ): إن (برنار) يصني في حديقة اللوكسمبورغ إلى اثنين من خريجي (شارت) وهما يناقشان نظريتهما:

(*) انظر ج. تويليه: التجديد في التاريخ - نشرة تاريخ الكهرباء العدد 12، 1988 ص 5 - 13
(**) يجري هذا على نحو حسن (جزئياً) في العلاقات الشخصية، ولكن ينقص منظومة ملاحظة، «مرصد» لنزعات البحث في الخارج (ولا سيما لمؤرخي الثلاثين الاربعين سنة الأخيرة).

(***). سننظر بعين التقدير إلى قيام مركز تكوين للمؤرخين على مهن الاتصالات. وان الخطر بديهي مائل في انصراف هؤلاء الاتصاليين إلى التخصص وانفصالهم عن التاريخ.

(يقول (بوليه) BOULMIER: هل قرأت قائمة الابريشيات البندىكىة لعام 1600 التى وضعها سلفستر بونار؟
(اجاب (جىلى) GELIS: ياإلهى ! كلا، ولا أعرف إن كنت سأقرأها.
سلفستر بونار أحمق.

(وعندما أدرت رأسى رأيت أن الظل قد امتد إلى المكان الذى كنت أجلس فيه. وأصبح الطقس رطباً واعتبرتني احمق جداً إذا تعرضت لخطر الرثية فى الاصغاء لسفاهة هذين الشاين الدعىين...)

من البدهى أن كل جىل يحتاج إلى التكر للجيل السابق، إلى طرح مسائل جدىة، إلى أن يقول: (س) لم يفهم، إنه احمق، جاهل. وهذه القسوة نحو الأجيال القدىة تتعرض جداً لزيادة كبرى: فمن البدهى تعذر التنبؤ بما يريد الجيل أن يفعل، أو بما سىفعل، الجيل الذى سىبلغ الثلاثىن سنة 2010 (الذى دخل الثانوى سنة 1990)، وما هى المؤثرات (والمؤثرات المضادة) التى سىخضع لها، ماهى أحلامه القادمة، أى الأساتذة المشرفىن الذى سىنالون إعجابه: وهذا ما يجب أن يحضّ على كل (توقع)، على الحىطة. اننا لا نعرف كثيراً أían نمضى: قد تتضاءل مكانة التاريخ الجامعى بالنسبة لتارىخ (غىر المحترفىن) (وهذا أمر أكثر من محتمل)*، وربما سىكون صلات (رابطة) المؤرخىن بالمجتمع صلات أوثق (ىترتب على التاريخ السىاسى أن ىضطلع بدور كبرى)، وقد ىدیر المؤرخون على نحو آخر صورتهم عن المؤرخ بفضل وسائل الإعلام الجماهىرى (وهذا لا ىخلو من خطر).

(*) من الغرىب أن أى تقدیر أو تحلیل لا ىوجد عن «منظومة» المؤرخىن غىر المحترفىن (إنهم لیسوا فقط «مؤرخى یوم العطلة» بل انهم یمثلون ثلثى الانتاج التارىخى). ونحن نتصور جماع المؤرخىن الجامعىین أو حقنهم: ولكن ذلك غىر معقول، وهو فى بعض القطاعات «ضیق»، وإن التاريخ المسمى التاريخ «الجامعى» هو إما غىر موجود، وإما من أكثر الموجود تفاهة.

خاتمة

ان تكون مؤرخاً، تلك مهنة - ولكنها كذلك موهبة، حال، مزاج: بل اننا نشعر بشيء من التوجس لدى اختتام كلامنا على مثل هذا الموضوع.

التاريخ ليس سوى لعبة تتغير قواعدها ببطء شديد^(*): اللاعبون البارعون فيها قلة. فهناك اللامحظوظون، والساهون، والتافهون، والханقون: وهذا ما يوجب اقامة فويرقات في اللوحة (الناس يسرفون في ميلهم إلى الكلام على المؤرخ المثالي). أترانا نقدر على تقديم بعض النتائج المتصلة بهذه اللعبة بصفة موقوتة؟

الدرس الأول: ليس التاريخ مهنة سهلة. وقد يكون من السهل تدريس التاريخ، ولكن من الأقل يسراً جداً أن تكون مؤرخاً وتكتب التاريخ: انه ليس الصحافة، ولا المحاولة الفلسفية، ولا الرواية. والمرء يبقى بالضرورة أدنى من الوفاء بمستلزمات المهنة: فليست كمية الجذاذات، ولا عدد الصفحات بما يصنع المؤرخ الجيد:

ما بالاقلام ولا بعلب المحفوظات

ستتسلح يوم الغضب^(**)

(*) يرفض مؤرخون كثيرون ألا يكون التاريخ سوى لعبة: فهم يؤمنون بطلب الحقيقي (او التصحيح، ويأبون - مبدئياً - لذة اللعبة. وقد قاد هذا الدرب إلى كثير من الغلو والأخطاء.

(**) لقد ضغن (بيغي) قصيدة حواء بعض الحبث قائلاً: ←

المؤرخ يعرف بالضرورة أن ثمة أموراً لن يعرفها البتة، وأن لاسبيل أمامه لبلوغها باستثناء جزء ضئيل من الوثائق، وهي في الغالب الوثائق الأقل أهمية، وانه لن يدرك البتة سوى أمور شبه حقيقية - وغير يقينية - وان تجربة الحياة تعوزه في اغلب الأحيان (ان مؤرخ المصارف ليس مصرفياً)^(*) وان وعي هذه الحدود الحتمية يشكل في الغالب ينبوع قلق.

الدرس الثاني: لنكرر القول إن التاريخ مهنة حرفية، لها اخلاقها المهنية تماماً كالساعاتي أو على الافضل النجار، ولها ذوق الإتقان، والأملس، والأمانة، والفردية، ورفض عمل الفريق، وأحياناً الشعور بصنع تحفة فنية، العمل للخلود. وهذه الخصال حرفية: الناس في (البيروقراطية) يسرفون في البحث، في امتداح عمل الفريق، وهو ذو حدود أكيدة: وكما يقول (امانويل لوروي لادوري)^(**) EMMANUEL LE ROY LADURIE : «إن حساسية المؤرخ (ولا أقول الاختيار الايديولوجي) أمر أساسي. ولذا بات من الصعب العمل مع مساعدين في البحث، إذ المهم، في بعض الحالات، هو ارتكاسنا الشخصي أمام وثيقة. ولا يتعلق الأمر بالوثيقة وحدها، ولا بي نفسي، بل بي وبها. وهناك زوج يتشكّل، للأفضل أو للأسوأ»: حدس المؤرخ وفطنته شيطان اساسيان، وتبقى المهنة مهنة شخصية (شأنها شأن كتابة المؤرخ). يصرح (لوي، روبرت) (L.ROBERT)^(***): «إن عملنا لا يمكن أن يغدو بأمانة عملاً صناعياً على نحو ما يتبجح بذلك متبجحون هنا وهناك ويرفضون العمل الحرفي، هذا

← لا بكتاب ولا بماكتب

سنزود يوم القيامة (...)

وليس بأمني اساتذة التاريخ

سنحصن يوم الحساب ...

يبد أن (سلفستر بونار) - حين نجد قراءته، لم يقل شيئاً آخر.

(*) انظر فيما يلي: الدرس الخامس.

(**) لوموند 2 - 3 ايلول 1984.

(***) الخطاب المذكور لعام 1965.

العمل المتتوف، الأجر. لاشيء يحل محل العالم المخلص المهنته: يجب جمع المواد بجهد شخصي، يجب تحقيق شخصي، نقد شخصي، تحرير شخصي. ينبغي البناء بناءً بشرياً. لاشيء يحل محل الفرد لمحاولة فهم الحياة الغابرة مثلاً... يجب أن نكرر ذلك لأن بعض قائلين يتكلمون في أغلب الأحيان جداً، ودونما احتياط، يتكلمون عن مخابر، عن اعمال فريق، توزع الأموال عليها بسخاء، بينما يكون (الانتاج) - وذلك لأسباب بديهية - دون مستوى الطماحات (ان عمل الفريق، في الأغلب، يهبط بالبحث إلى الأدنى^(*)). ولعل نصيب الشعور المسبق، الحدس المبدع، سيكون في المستقبل مطرد الأهمية. بيد أن ثمة نزعة لتقليد العلوم الدقيقة تقليداً أعمى من جراء ابهامات مؤسفة.

الدرس الثالث: المؤرخ يعيش - وسيعيش - في لاطمأنينة متزايدة، فهو لم يبق واثقاً بسيطرته على مهنته سيطرة تامة. ذلك أن للعمل الحرفي عبودياته البديهية، وقواعد التدريب فيه، وقواعد الوجدان، والحذر، وهي مما تصعب مراعاته في الغالب. زد على ذلك أن هناك ضغط الشباب، ومنافسة الإعلام الجماهيري التي تهدم سلطة المؤرخ (اللاإعلامي) - المجالات الجديدة التي ينبغي (ارتياها) (الأمر الذي كان (بول لويليوت) يهزأ منه والذي كان يفترض أن المعلوم سابقاً، أن ما كان لمُح سابقاً هو معروف تماماً، ويُن تماماً، وهذا زيف في الجغرافية أيضاً)، الأزياء الذائعة، صنوف القسر المتنوعة المواكبة للطلب، لمقتضيات الناشرين: لم يبق المؤرخ واثقاً بنفسه، بل عليه أن يواجه (تهديدات) ضبابية - المعلوماتية، وسائل الإعلام الجديدة، (الجمهور الكبير). وهذه الحال من القلق المؤه ببراعة متفاوتة تزداد خطراً من جراء خصومة الاساتذة المشرفين، وحسد المؤرخين، فالمرء يكف عن جرأة المجازفة، وينكفي في الغالب،

(*) كان التاريخ الاقتصادي - وإلى درجة أدنى التاريخ الاجتماعي - يستند إلى الرقم، وكان جمع الأرقام عملية تتسع إلى أن ينجزها فريق عمل: ولكن وسواس الأرقام المذكور بدأ يبدو «باليا» والباحثون يحذرون الاحصاءات التي لاتخضع لنقد كاف كما يحذرون وسواس علماء الاجتماع المائل في المبالغة باستعمال الأرقام.

وهو يرتعد، على مجاله المصون بعناية. وهذا الموقف الانعزالي أكثر شيوعاً ويخطر في البال، بل اننا نلفاه أحياناً لدى الشباب الذين يحسبون جهودهم بدقة.

الدرس الرابع: يعمل المؤرخ ثلاثين أو أربعين عاماً، أي فترة جيلين أو ثلاثة. وهو مضطر، لأجل بقاءه، إلى تغيير أغراضه، وطرائقه، ومنظومات استدلاله، وفيما عدا ذلك يحيا على عكس التيار، وإعادات النظر هذه شاقة يساء تحملها، في الأربعين أو الخمسين من العمر (انظر فيما سبق: نظرة الحذر). فمفردات الطلاب، وحساسيتهم تتغير، ويلقى المرء بعض المشقة من أجل التكيف، أو على الأقل يلزمه شيء من الشجاعة. ومما يثير دهشة الملاحظ عزلة المؤرخ الذي يشعر - شعوراً رهيباً - بموت انتاجه، يشعر بان السن توقعه في الشرك، وأنه في عالم متحرك يحسر الاحتفاظ فيه (بسلطته) التي تتبدد شيئاً فشيئاً إن لم يتخذ حذره. إن القدرة على التجديد تمحي. والتلمس يتلاشى، والمرء يتراجع فيكرر نفسه وهو يأبى الاعتراف بالإخفاق - وثمة إخفاقات كثيرة - ويصبح تافهاً. أجل، إنها رؤية متشائمة: ولكن المؤرخ ليس إنساناً يني مذهب، ويصنع كائنات عقلية، بل إنه إنسان يحيا، ويحلم، ويضل، ويتألم.

الدرس الخامس: الحق أن ليس في وسع المؤرخ المكوث في مكتبه والاقتصار على تعليمه: فذاك تصور انغلاق، نصالي عن المهنة. ينبغي أن تكون عيناه جد مفتوحتين على الحياة، حتى لو انطوى ذلك على بعض الأخطار. وأما قيمة أعماله ونجاحها في الغالب، ومهما يكن في الأمر، تتبع تجربته بالآخرين، وكما كان (دوم لوران بينار) DOM LAURENT، مؤسس رهبانية (سان - مور) ST - MAURABERNARD، يقول سنة 1619 إنهما تتبع (ذاك العلم التجريبي الذي يحصل من البراعة، ومعاشرة الناس، وتجربة الأعمال): وتلكم قاعدة مجهولة باسراف من قواعد اللعبة، وهي تنطوي بأن واحد على

حسناً ومساوئاً بديهية. كان (رينه ريمون) يذكّر^(*) بما كان يعود الى المسؤوليات التي اضطلع بها في الجامعة وفي إدارة الكنيسة: (إذا أحسنًا وزن كل شيء، فإنني أعتقد جازماً أن تنوع هذه التجارب لم يكن ذا شأو أقل من شأو التعليم والقرارات وممارسة المهنة. وإذا قسنا ماتعلمت منها وقارنك فائدتها بجهلي السابق خلصت تقريباً إلى التساؤل: هل يمكن أن يكون المرء مؤرخاً دون أن يكون قد بارح البتة مكتبه: إنني أخجل إذ أفكر في بعض الأحكام أو بعض التفاسير من حيث طريقة اتخاذ قرار سياسي وقد اتخذتها حينما لم تكن لدي أية تجربة بهذه الأمور. أجل، يستطيع التخيل، ويجب عليه، أن يعوّض عن فقدان التجربة. فالتخيل الذي أعده إحدى ملكات المؤرخ الرئيسة، والتي تنير أمامه عقليات أخرى، إنما يكشف له عن سبل تفكير مغايرة، ولا يمكن أن يُطلب من كل مؤرخ إهمال دروس الحياة التي تأتي و (تغني رؤيته التاريخية...). بديهي اننا لانستطيع الإسراف في نسيان هذا البعد من أبعاد المؤرخ الجيد^(**): وعندنا أن على المؤرخ الشاب ألا يدع - إن استطاع - الفرصة تمرّ دون معرفة آفاق أخرى غير مستودعات المحفوظات. إن الحياة تعلّم الماضي تماماً كالوثيقة - ولكن كثيراً من الاساتذة المشرفين ينسون أن يذكّروا طلابهم بذلك ...

(*) محاولات تاريخ ذاتي - المصدر المذكور ص 336.

(**) المشكلة المطروحة هنا على نحو غير مباشر هي مشكلة إسهام «غير المحترفين» - ككتاب عدل، أرباب مصارف، مهندسون - في تنمية هذا الفرع أو ذاك من فروع العلم: لأن التخيل لا يستطيع، بالبداهة، ان يحل محل فقدان المعارف التقنية. ويبدو لنا ان التاريخ الديني يكتبه شخص لا مؤمن هو أيضاً شيء خطير. ولكن الجامعي لا يحب أن يفكر في هذا النوع من المشكلات، لأسباب بديهية.

IV — Les historiens commencent à se confesser, à parler d'eux-mêmes (même si ce qu'ils ne disent pas est plus important que ce qu'ils disent). On lira

Philippe Ariès, *Le temps de l'histoire*, 1954

- *Un historien du dimanche*, 1981.

Emmanuel Le Roy Ladurie, *Paris-Montpellier*, 1982

Essais d'ego-histoire (sous la direction de Pierre Nora), Gallimard, « Bibliothèque des Histoires », 1987 (récits d'Agulhon, Chaunu, Duby, Girardet, Le Goff, Michelle Perrot et Rémond).

V Nous n'avons pas encore de journal d'historien, en dehors de celui de Michelet, qu'il faut lire

VI -- Pour tout ce qui concerne le métier (textes réglementant la profession comme problèmes de méthode) il convient de dépouiller la revue *Historiens et géographes*

مراجع تفيد حول الموضوع

La bibliographie sur l'exercice du métier de l'historien est somme toute peu importante

I. — Sur le métier, on possède un seul ouvrage important, inachevé, ce qui rend parfois l'interprétation malaisée, de Marc Bloch, *Apologie pour l'histoire ou métier d'historien* (rédigé en 1941-1942, Colin, 1949, rééd. 1974).

II. — On dispose aussi de deux livres d'accès difficile pour l'historien débutant (ou l'historien non professionnel)

Raymond Aron, *Introduction à la philosophie de l'histoire, essai sur les limites de l'objectivité historique*, Gallimard, 1938.

Paul Veyne, *Comment on écrit l'histoire, essai d'épistémologie*, Le Seuil, 1971 (nouv. éd 1978)

III. — Sur les méthodes de raisonnement de l'historien et les difficultés du métier, on peut lire :

Charles-V Langlois et Charles Seignobos, *Introduction aux études historiques*, 1898

Charles Samaran, *L'histoire et ses méthodes*, Encyclopédie de la Pléiade, 1961.

Guy Thuillier, Pour une prospective de l'histoire, *Revue historique*, juillet 1973, p 119-140

Paul Leuilliot, Histoire locale et politique de l'histoire, *Annales ESC*, 1974, p 139-150 (essai sur l'historien local)

Michel de Certeau, *L'écriture de l'histoire*, Gallimard, 1975 (d'accès parfois difficile)

Denis Roche, Les historiens aujourd'hui : Remarques pour un débat, *Vingtième siècle*, octobre 1986, p 3-20

Pour une histoire politique, sous la direction de R Rémond, Le Seuil, 1988

Etre historien aujourd'hui, Unesco, 1988

Jacques Le Goff, *Histoire et mémoire*, Gallimard, 1988 (avec une importante bibliographie)

صدر عن الدار

هرمس مثلث العظمة (النبي إدريس)	تأليف: لويس مينارد
الفرعون الأخير أو زوال حضارة	تأليف: فرانسيس فيفر
مفهوم العدل في الإسلام	تأليف: د. مجيد خدّوري
موسوعة الجيب لقواعد الإنكليزية	إعداد: نورالدين البهلول
أصحاب الجلالة - الأهرامات	تأليف: ف. زاماروفسكي
ينشئه مكافحاً ضدّ عصرة	تأليف: رودولف شتاينر
قوّة الأسطورة	تأليف: جوزيف كامبل
أقاصيص شرقية	تأليف: مارغريت يورسينار
شخصية الابن البكر (نشأة وبلوغاً)	تأليف: كيغين ليان
التوظيف الاجتماعي للمحرّم (التابو)	تأليف: سليمان حريثاني
ولادة إله (التوراة والمؤرخ)	تأليف: جان بوتيرو
أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق الأدنى	د. كارم محمود عزيز
الجنس ومنابع الموت	تأليف: د. وليام كلارك

المحتويات

5	المقدمة
9	تصدير
13	الفصل الأول: كيف يغدو المرء مؤرخاً؟
17	الفصل الثاني: تطور المهنة
27	الفصل الثالث: ما المؤرخ؟
39	الفصل الرابع: مهنة شاقة؟
47	الفصل الخامس: الحوافز
61	الفصل السادس: المخاطر
75	الفصل السابع: الاستعمال الجيد
87	الفصل الثامن: المهم في التاريخ
95	الفصل التاسع: جمهور المؤرخ
99	الفصل العاشر: التسويق
107	الفصل الحادي عشر: توقعات المهنة
117	خاتمة



إذا كان هذا الكتاب يجيب على أسئلة تهم الطلاب ممن يتقدمون لنيل درجة الأستاذ كي تساعدهم فيما يفكرون وما يفعلون أو سيفعلون وهذا ليس فقط في مهنة التاريخ بل بصدد كل مهنة فإنه في الوقت نفسه يعطي فائدة للقارئ سواء أكان يرغب في التعرف على كيفية وأسرار كتابة التاريخ إذ يُيسر له فهم الإشكاليات التي تقع فيها الكتب التي يقرأها. أو أكان هذا القارئ ممن يرغبون التحول والعمل في كتابة التاريخ سواء أكان تاريخ الأحداث والسياسة أو تاريخ الآداب والفن، أو تاريخ مهن وعلوم كالطب والصيدلة والهندسة والعمارة والكيمياء والجيولوجيا.. الى آخر القائمة.

والكتاب يجيب على أسئلة من نوع: من أين تصدر موهبة المؤرخ؟ كيف تطوّرت المهنة؟ ما هي أسس المهنة؟ ما صعابها؟ ما حوافز المؤرخ؟ ما المخاطر التي يتعرض لها؟ هل يوجد استعمال جيد للتاريخ؟ ما المهم في التاريخ؟ ما جمهور التاريخ؟ ما التسويق اليوم وغداً؟ هل نستطيع تحديد توقعات المهنة في المستقبل؟

وقد أفرد فصلاً خاصاً لكل من هذه الأسئلة.

